

سعيد عقل
شعره والنثر

المجلد الأول

بنت يفتاح

المجدلية

قد موس

نوبليس

سعيد عقل

شعره والنثر

المجلد الأول

بنت يفتاح

المجدلية

قدموس

نوبليس

DL

للمؤلف

- بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)
- قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ — الطبعة الرابعة ١٩٩١
- المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ — الطبعة الثالثة ١٩٩١
- رندلي الطبعة الأولى ١٩٥٠ — الطبعة الخامسة ١٩٩١
- غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)
- أجل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)
- لبنان ان حكى الطبعة الأولى ١٩٦٠ — الطبعة السادسة ١٩٩١
- كأس لخمير الطبعة الأولى ١٩٦١ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- دلزي الطبعة الأولى ١٩٧٣ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- كما الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)
- الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلد الأول

بنت يفتاح
المجدلية
قدموس

بنت يفسا

مأساة شعرية من فصلين

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٣٥

الطبعة الثانية مصححة ١٩٩١

إلى Q.A.

قَوْلٌ

أدبنا الكلاسيكي في هذا الساحل من آسيانا يجهل
« الأنواع الأدبية »، حتى الأولية منها كالملحمة. وكان على
نهضتنا أن نحاول جهدها مجارة آداب الأمم في هذا
المضمار.

أترك الملحمة إلى ظرف آخر، وأكتفي هنا بدرس
المَرسح.

* * *

بشيء من الجرأة، أشيح بناظري عمّا وسَموه عندنا بسمة
المَرسح، لأبدأ بعرض موجز أتناول فيه أنواع المَرسح عند
الأمم الراقية.

ثلاثة مراسح في الآداب العالمية لم تُخفق : الإغريقي،

والشكسيري، والكلاسيكي الفرنسي في القرن السابع عشر.

الكلاسيكي الفرنسي صورة أروع للمرحح الإغريقي،
فأترك أشيل وسوفوكل إلى كورناي وراسين. يبقى لدي
مرسحان لنوعين مختلفين : الشكسيري والكلاسيكي. على
إن هذا الأخير نفسه، منقسم إلى نوعين مع راسين
وكورناي. طريقة راسين تقضي بوصف « الأزمة في أشد
حالاتها »، فإذا المأساة عاصفة مهيئة من زمن تنفجر على
المرسح فلا يمكنها، والحالة هذه، أن تطول أو تجري
وقائعها في أماكن مختلفة، وهكذا تتوافر وحدتا الزمان
والمكان. وطريقة كورناي تتابع وصف الأزمة من نشوئها
إلى ذورة تفاقمها، إلى الانحلال. خذ له « السيد » مثلاً،
فترى أن الأزمة لا تبدأ إلا بعد صفة « الكونت »، إذ يقف
« رودريك » حائراً : أترك والده سليب الشرف، أم يقتل
والد « شيمين »، حببته ؟ فلو تناول راسين موضوع
« السيد » هذه، لبدأ الرواية من هنا. ومن البديهي أن يكون
منهج راسين هو الأكمل لبساطته ولاكتفائه بأخذ البعض من
حالات النفس يرسل عليه النور، فتتجلى النفس وعواطفها
بأجلى مظهر. وعليه يكون النوع الراسيني النوع الذي أقصده
من المرحح الكلاسيكي.

أما المرسح الشكسيريّ فالثابت أنّ صاحبه لم يكن متضلّعاً من اللاتينية والإغريقية فيأخذ بمرسحهما وبرقيّه، كما فعل راسين، وهكذا نشأ مرسحه على العموم ضرباً من الأدب البكر وبالتالي آخذاً بالملحميّة. فكما ترى في « الإلياذة » مثلاً، عصور إغريقيا الأولين، تتتالي أمامك حيّة أخلاقاً وعادات، هكذا في « روميو وجوليت » وفي « هملت » يتتالي عصران : إيطاليّ ودانمركيّ، يخفّقان بأخلاق هذين البلدين وعاداتهما.

يظلّ البحث قائماً على راسين وشكسبير، فأَيّ الاثنين نعتدّ في نهضتنا، وقد ثبّت لنا أنّهما مختلفان ؟

الأوّل يتناول « أزمة » واحدة، يدرسها بكثير من التعمّق بحيث لا يعطيك النفس الواحدة إلّا وهي تخفق بين يديك كأنها نفسك. والثاني يتناول أزمت عدّة وجماعة كاملة. وإذا حالت وفرة أشخاصه دون التعمّق في درس كلّ نفس، فتعاض أنت بأنّ امام عينيك عصراً كاملاً أو بشرية بأسرها، ولو خافتة الألوان.

فنّ الاول — وهو درس — يقتضي له، على قولهم، إنشاء وضعيّ رصين، يسيّره المنطق، أداة الدّرس الأولى، فيخلو من المقاطع الغنائيّة أو الملحميّة. وفنّ الثاني — وهو تصوير

عصر أو بشرية — يستدعي الإنشاء الغنائي والملحمي لغة
البشرية في كل آن.

لا يجوز لنا الأخذ بأحد هذين النوعين، مهما كان كاملاً،
إلا إذا وافق آميال بيئتنا وذوقنا. فما هو ذوقنا وما هي آميالنا ؟
وهل نستطيع راسين بإجماعه، أو شكسبير بإجماعه ؟

أخفق مسرح هوغو إلى حد، يوم أراد أن يحدو حدو
شكسبير، فهل يعني ذلك أن المسرح الشكسبيري لا يوافق
غير الانكليز أو أنه لا يلائم العصور الحديثة ؟ وأنه لا يستند،
ليعيش، إلا إلى « العتق » ؟ وأنه لذلك حقيق بالإهمال ؟ لا،
والتشبيه الذي جئت به بعيد عن الحقيقة بعد شوقي عن
راسين... فإنما لمسرح شكسبير مزايا مسرحية حقا تفيدنا
نحن الشرقيين على الأخص. فهو نوع أمثل « الفاجعة
الشعبية » (mélodrame)، التي نجحت عندنا في « عاصفة
في بيت » و« الذبائح » و« العواصف » لأنطون يزبك. ومن
جهة أخرى أرى أن حالتنا في الشرق غير حالة مشاهدي
هوغو في فرنسا. هؤلاء اعتادوا، مع راسين وكورناي،
مسرحاً منطقياً يكاد يخلو من الغنائيات، فلولا بعض مقاطع
من مثل « مونولوج رودريك » و« أغاني استير »، لرأينا
المسرح الكلاسيكي الفرنسي خالياً من الوتيرة الغنائية. وجاء

هوغو فقدّم لهم فجأة نوعاً معاكساً تماماً. نحن في الشرق
موقفنا من هوغو، المتأثر بشكسبير، غير موقف الفرنسيين،
وقد اعتدنا أن نرى شاعراً يسمعوننا من على المنبر ٦٠ بيتاً
كلها من النوع الغنائي، وقل أخيراً اعتدنا أدباً كاملاً يكاد لا
يعرف إلا النوع الغنائي. الفرنسيون ألفوا، في الكلاسيكية،
النظام والبساطة والوضوح. ونحن ألفنا « الفوضى
الفخمة » والتعرض إلى « الملحميات الناقصة » من مثل ادب
هوغو، وإني على مثل اليقين من أن صاحب « البوركراف »
لا يخفق على مسرحنا إخفاقه في باريس.

إذن نحن، إزاء مسرح شكسبير الغنائي الملحمي، نحس
أننا في قلب أدبنا الكلاسيكي الذي لا يسعنا أن نخلعه
بالكلية.

أما راسين فيغري ذوقنا الحديث المثقف على الأدب
الأوروبي، يغرينا بوحدة الازمة التي تمكنه من درس النفس
البشرية، الأمر الذي ينبغي أن نلتفت إليه بظما في كتاباتنا الحديثة،
ويغرينا أخيراً بطريقة تسهل — وهي وحدة ومنطق — عمل
الذوق، عدو الضوضاء والفوضى.

لزام علينا، والحالة هذه، أن نلتفت بأن إلى صاحب
« أندروماك »، وصاحب « هملت ».

* * *

وبعدُ فقد تأثرت، في « بنت يفتاح »، بنهج راسين.
أخذت « أزيمة » وعالجتها وهي في « تفاقمها »،
فانقادت إليّ الوَحَدَات الثلاث، كما أنني سايرت ميلنا إلى
الغنائيات والملحميات فكنت كشكسبير غنائياً ملحمياً،
ولكن إلى حدّ، بحيث لا أسقط من المبالغات حيث سقط
هوغو.

وفي وصف النفس البشرية رأيت أن المُحدّثين لم يكتفوا
بتصوير دقائق العاطفة الواحدة، والعراك بين الأشخاص
المختلفين، بل صوّروا العواطف المتضادة في النفس
الواحدة، وهكذا خلقوا « الفاجعة النفسية » أو « فاجعة
الضمير ». وهذه ميزة للادب الحديث على الادب الاغريقي،
فلم أمرّ بها من دون اهتمام.

وإجمالاً كان المرسح عندي « قلقاً ». فقد ذهب جول
لمتر إلى أن المرسح هو هذا « القلق » الذي يغمر قلوب
المشاهدين، اذ يتوقعون اصطدام خُلق بخُلق مُضادّ. فتخلو
الرواية من المفاجآت على المشاهدين، بحيث يتعرّفون
الموضوع كلّهُ منذ البدء إمّا لشهرته وإمّا لإتقان « العرض »
القصير، فلا يتساءلون بعدُ : « ما هو سرّ العراك النفسي ؟ »
لأنّهم مقدّماً يعرفونه، بل يتساءلون : « كيف سيتعرّف

أشخاص الرواية إلى هذا السرّ، وكيف سيتحمّلون خطبته ؟ ». « القلق » هو المسرح، كلّ المسرح، وقد تجلّى في الآداب العالميّة في مأساة خالدة : « أوديب ملكاً » لسوفوكل.

* * *

أما أن أكون أخذتُ في إنشائي بطريقتي المعروفة، التي تصف العواطف بالصُّور أو على الأصحّ بالإيحاء، فأمرٌ ما أنا بالنادم عليه آتي به في المأساة. وقد آن للمتأدّبين أن يفهموا أصول المسرح ومقتضيات أنواع المسرح. فالمأساة غير « القطعة » (pièce)، وغير « المهزلة »، وغير « الفاجعة الشعبيّة ». المأساة مفترض فيها « جلال الحزن، وأن ترفعك بإبهامها إلى مثل الحلم »، فتتفلى أنت — وهذا شرط الفنّ — من الحقيقة الوضعيّة. ولهذا أوجبوا فيها الشعر. فهي، من دون بقية الأنواع المسرحيّة، لا تحاكي الحياة العاديّة. والآ كان عليهم أن يحظّروا الشعر فيها، حتّى العاديّ منه، لأنّه ليس في الحياة اليوميّة. قلتُ إنّ إنشاء المأساة يجب أن يأخذ بروعة الإبهام، فيحاول أن يُظهر العاطفة بالصُّور أو يوحّيها إيحاءً. قالت السيّدة ده ستال : « إذا حرّكت النفس عاطفة

قوية، فالمرء العاديّ نفسه يلجأ إلى الصُّور والاستعارات :
يستعين بالطبيعة الخارجيّة ليعبر من نفسه عمّا لا يُعبر عنه .
وهل المرسح غير « تعبير عن عواطف قويّة » ؟

* * *

مفترضٌ في « المأساة » أن يكون موضوعها عريقاً في
القدم، يعطيه غبارُ السنين جلالاً. فأخذتُ موضوعي من
« العهد القديم »، واستخدمته للتعبير عن أمانى بلادي.

أمّا أشخاصي فقد تعمّدتها أميل إلى أشخاص كورناي.
ذلك أن الروائيّ الذي « صوّر الإنسان كما يجب أن يكون »
تظلّ طريقته أجدى لبلادٍ تريد في بدء نهضتها أن توفر المثل
العليا. وإنّي لأجدّه خطّلاً أن يبدأ المرسح عندنا بوصف
نفوس هذا العصر كما هي. ففي مثل هذا الوصف قطعُ
رجاء، وقنوط من حياة شعبٍ يأمل أحراره منه أن يتطلّع إلى
الشمس.

* * *

أعطاني « سفرُ القضاة » من « العهد القديم » — وقل
التاريخ — أن يفتاح رجل بطش ولدته لجلاء امرأةٍ بغي. فإذا

كَبُرَ إِخْوَتَهُ، أَنْكَرُوا عَلَيْهِ الْأُخُوَّةَ وَطَرَدُوهُ. وَلَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا
 مَتَى اجْتَنَحَهُمْ « بَنُو عَمُونَ » وَاسْتَبَوْهُمْ. وَمُقَابِلَ قَبُولِ يَفْتَاكِ
 بِمُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ يُقَرَّرُ لَهُ أَهْلُهُ بِحَقْوَقِهِ وَبِالْسيَادَةِ عَلَيْهِمْ. وَيَنْتَصِرُ
 يَفْتَاكِ. لَكِنَّهُ يَكُونُ قَدْ نَذَرَ قَرْبَانَ ظَفَرِ أَوَّلِ بَكْرِ تَخْرُجُ إِلَى
 لِقَائِهِ. فَيَتَّفِقُ أَنْ تَكُونَ الْأُولَى بِنْتَهُ الْوَحِيدَةَ. وَيُعْطِيهَا شَهْرَيْنِ
 تَبْكِي بِكُورِيَّتِهَا عَلَى جَبَلِ جَلْعَادَ ثُمَّ يَنْفَذُ فِيهَا النَّذْرَ. وَيَصِيرُ
 رِسْمًا عِنْدَهُمْ أَنْ تَقُومَ الْعَذَارَى كُلُّ سَنَةٍ إِلَى جَبَلِ جَلْعَادَ
 يَتَفَجَّعْنَ عَلَى بِنْتِ يَفْتَاكِ.

خَلَقْتُ أَنَا الرِّوَايَةَ هَكَذَا :

افْتَرَضْتُ أَنَّ يَفْتَاكِ عَلَى أَثَرِ طَرْدِهِ اسْتَبْدَلَ بِاسْمِهِ اسْمَ
 جَلْعَادَ، وَكَتَمَ بِنْتَهُ الْأَمْرَ، فَرَبَّاهَا لَا تَعْرِفُ فِي وَالِدِهَا — جَلْعَادَ
 هَذَا — إِلَّا رَجُلًا كَبِيرًا وَأَعْمَالًا شَهْمَةً، كَمَا رَبَّاهَا عَلَى كَرِهٍ
 يَفْتَاكِ، حَرِيصًا إِذْنًا عَلَى تَرْبِيَّتِهَا تَجْهَلُ أَنَّ هَذَا الْيَفْتَاكِ هُوَ
 وَالِدُهَا. وَكَانَتْ إِذَا اجْتَمَعَتْ بِأَتْرَابِهَا يَحْتَقِرْنَهُ وَذَكَرَهُ،
 لَمْ تَتَوَانَ عَنْ مِشَارَكَتِهِنَّ هَذَا الْاِحْتِقَارَ. وَافْتَرَضْتُ أَنَّ أُمَّهُ
 الْبَغْيَى انْتَهَتْ مَجْنُونَةٌ وَهِيَ تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرٍ
 تَزْعَجُهُ وَيَطْرُدُهَا. وَبَدَأَتْ الْمَأسَاةَ عِنْدَ تَرَدُّدِ يَفْتَاكِ فِي شَأْنِ
 دُخُولِ الْحَرْبِ : أَيْتَرَكَ بِلَادَهُ لِلْعَدُوِّ سَبِيَّةً ؟ أَمْ يَدْخُلُ الْمَعْرَكَةَ
 فَيَشْتَهَرُ اسْمُهُ وَيَفْتَضِّحُ أَمْرَهُ عِنْدَ بِنْتِهِ ؟ فَكَانَتْ رُوحُ الرِّوَايَةِ

في « قلق » المشاهدين على بنت يفتاح « الأبيّة » إذا عرفت
سرّ أبيها « الوضع »، وعلى يفتاح « المتكّتم » إذا
« اقتضح » أمره عندها.

الأشخاص

يفتاح

راحيل : بنت يفتاح

المجنونة : أم يفتاح، عاهرة من جلعاد

تامارا: خدنة لراحيل

يمثل المرمح تلة من « طوب »، قرب جبل « جلعاد »

الشرية

جُرِّحَ عَلَى النورِ الهَوَانُ،
وَمَاتَ مَعَهُ الْجِنَانُ ؛
وَلَأَضْلَعُ الْأَحْرَارَ أَبَادُ
صَغِيرَاتِ حِسَانُ،
إِنْ يَسْتَبِدُّ بِهَا الزَّمَانُ،
يُغْنِ ثَوْرَتَهَا الزَّمَانُ.
لِي، مِثْلَ غَيْرِي بِالْعُلَى
الْمِثْنَانُ، مَرْمَى وَافْتِنَانُ ؛
أَنَا لَا أَذِلُّ، وَفِي جَبِينِ
الشَّمْسِ يَبْدُو لِي مَكَانُ !

الفصل الأول

مَضْرَبٌ إِلَى الْيَمِينِ ؛ مُحْرِقَةٌ
مَتَدَاعِيَةٌ إِلَى الْيَسَارِ، يَظْلِلُهَا شَجَرٌ
جَبَلِيٌّ.

الليل عند السحر يُنَازِعُ شَيْئاً
فَشِئاً.

المستحدر الأول

يفتاح ثم المجنونة

يفتاح

أَيُّ تِيهِ، يَا رَبُّ، أَيُّ مَقَادِيرَ تَقَازِفَنَ عَزَّتِي وَقِيَادِي ؟
أَنَا فِي حَيْرَةٍ، أَهَادَنَ دَهْرِي، وَأَهَزَّ الْآلَامَ مَلَأَ فَوَادِي،
أَنكَرْتَنِي عَشِيرَتِي، وَرَمَتَنِي هَائِماً فِي قِفَارِ «طُوبَ» الْجُحُومِ،
فَرُغَ مَجْدِي، مَدْرَبْتُ فِي الْمَعَالِي، كُنْتُ دُنْيَا، لَوْلَا مَذَلَّةُ أُمِّي.
أَنكَرْتَنِي «جَلْعَاد» عَمْرِي، فَلَا تَذَكَّرْ بَطْشِي، لَوْلَا الْعَدُوُّ السَّابِي،
أَتْرَانِي مَجِيرَهَا مِنْ عِدَاهَا، وَأَنَا السِّلْوُ بَيْنَ ظُفَرِ وَنَابِ ؟
أَنَا سِرٌّ كَتَمْتُهُ عَنْ كِيَانِي، عَنْ أَحَبِّ الْبَنِينَ، عَنْ رَاحِيَلَا،

إِنَّ أُجِبْ دَاعِي الْوَعْيِ يَشْعُرُ اسْمِي عِنْدَ بَنَتِي، فَأَلْتَقِيهَا ذَلِيلًا،
 وَإِخَالِ الْأَسْبَاطِ تَهْتِفُ بِاسْمِي فِي غَدٍ، وَابْنَتِي تُصَيِّمُ الْمَسَامِعَ.
 قَذَفْتَنِي الْأَقْدَارُ دُمِيَّةَ لَاهٍ فَأَنَا حَائِرُ الْأُمَانِيِّ، ضَائِعُ
 بَيْنَ أُمَّ مَجْنُونَةٍ تَمْلَأُ الْبَيْدَ صَرَائِحًا، وَتَمْلَأُ الْأَمْسَ عَارًا،
 وَابْنَةٍ صُنْعٍ مَا أُرِيدُ، تَرَدَّدَتْ بُغْضُ يَفْتَاخٍ، فِي الْحَيَاةِ، شَعَارًا،
 ذِكْرُهُ عِنْدَهَا جِرَاحٌ عَلَى الْقَوْلِ، وَتَجْدِيفَةٌ عَلَى وَجْهِ قَدَسٍ،
 وَمَرُورُ اسْمِهِ عَلَى شَفَتَيْهَا غَيْمَةٌ مِنْ أَسَى عَلَى جَوْ عَرَسٍ !
 يَلْتَفِتُ فَجَاءَ فَيَرَى أُمَّهُ بِشَعَرٍ كَثٍّ، وَجَفُونَ نَاتِقَةٍ، وَأَثْوَابٍ مَمْرَقَةٍ
 أُمُّ !

المجنونة

يفتاحت.

يفتاحت

لا أنا لست يفتاحت. أنا لابنتي علاء ونور !

أنا ...

المجنونة

يفتاحت.

يفتاحت

لا تُعِيدِي عَلَى أَسْمَاعِي اسْمِي، فَكُلْ مَا بِي يَثُورُ.

المجنونة

أين راحيل ؟ أنت تحجبها عني ؟! ولا كُتِّمَ بعدُ لا أُستارا،
كُبرت والسؤال ينشق عن فيها، وتبدو الدنيا لها أسراراً.
شئت أم لا، أنت ابن عاهرة!

يفتاح

أمي، حنانيك ! أقصيري في السقال !
أنا أدري، إلى الصميم، إلى إخفاءٍ حالي عني، وإنكار حالي.

المجنونة

يشتد عليها العارض

عبثاً تصعد التلال المنيفات، وتجري تهرّباً في الفضاء !
أُتعدُّ السقوط من عل، يا يفتاح، من مُرتقى ظنون الرائي ؟!

يفتاح

عاودتها رؤى الجنون.

المجنونة

مستطردة

أتبغي مسح وجه الأوضاع بالأوهام ؟
عود البنت رؤية الحاضر القفر، فلا تشرق الشمس الدوامي.

يفتاح

بإشفاق

لو تعي قولها، وتعرف راحيل، وجوّاً عاشت له راحيل !

بترفق

طفلةٌ قلتها الصّباح اذا هلّ، شموخٌ لها النسيم العليل
مثل أبكار ربيعها، تعشق المجد، وتزهو بالمحتد المعبود،
تلتقي، في الربيع، بعض سجاياها، وفي الأنبياء بعض الجدود.

بحسرة

أنا ربّيتها على كره يفتاح، وربّيتها على الكفر باسمي،
فأنا، عندها، ابن أكرم بيت، باسم «جلعاد»، وابن أشرف أمّ؟
أتراني أوحى إليها بفرعٍ لطخته أمّي بوصمة عار؟!!

المجنونة

ترى راحيل فتّهد إليها

هي راحيل في الخميلة ...

يفتاح

يمنعها بتؤدة

خلّيتها شعاعاً في جيرة الأزهار !

المجنونة

غاضبة لمنعها رؤية حقيقتها
الضياء الضياء من ترهات نسجتها أنامل الإنسان؛
وغد البكر ليلة وفرة الرّجس، وجو مخضبّ بالهوان،
كذب طهرها ! ...

يفتاح

منتفضاً لإهانة بنته

أناثك، أمي !

المجنونة

كذب مثل محتدي براق.

يفتاح

أنت تعنين محتدي ؟ وله، لولا تردّيك، روعة الإشرار .
ولو انشقت الظواهر عني، لتراءى دمان طي جناني،
ولو البر بالأمومة يرضى، لاكتوى واحد بنار الثاني.

وكأنه قد ندم على إهانة أمه

عفو أمي، إن أجرؤ اليوم في القول !

المجنونة

وفي جرأة الدليل اتضاع !

يفتاح

بتكبر وتورة
ما أنا بالذليل !

المجنونة
ما أنت يفتاح ؟!

يفتاح

بتفجع وتحسر

بلى ! ولتهدّ تحتي البقاع !
مرّة في فمي الحياة، ودكناء المرامي في ناظري المكلوم،
وتكاد الشمس تظلم في وجهي، ويبكي عليّ طهر الغيوم !

المجنونة
يتغنّى بالطهر نذل شريد خلفته جلعاد إلف الضواري ؟!

يفتاح

مهل أمّي ! وربّ ضارٍ من الوحش له عزّة النفوس الكبار !

المجنونة

إحفض الرأس.

يفتاح

لأنكسار جيني غضبةً مثلما لوجه الخيال ؛
إن ورثتُ الدَّم الذَّلِيل، فروحي في ضلوعي، لها الجبينُ
العالِي !

المجنونة

حلُّ عن عِزَّةٍ.

يفتاح

مشيراً إلى وجه أمه

أبنتُ إبائي أن أراه إلا مُحِيًّا أغراً،
أنتِ أُمِّي، وأنتِ سرُّ عذاباتي، دعيني أبثِّك الحبَّ مُرًّا.

المجنونة

حُبُّكَ النَّذْل ...

يفتاح

بنفاد صبر

توجعيني ! وحبِّي ليسَ نذلاً إلا إذا يلقاكِ

وكأنَّ ندم

لا ! وأهواكِ كيف كنتِ.

المجنونة

وقد تقدّم يفتاح يريد تقييل يدها

تخيّب !

يفتاح

أنا أهواك.

المجنونة

دُع

يفتاح

يكون قد ارتمي دونها، يرغمها على التراجع

أنا أهواك !

إذهبي.

المجنونة

غاضبة لطردها

أنت ؟ أنت يفتاح ؟

يفتاح

خلّيني.

المجنونة

مولولة من الداخل

طريدُ الرُكبان من كلِّ ظعنٍ ؟
ثمرُ العار ! وُلد عاهرة كالليل ! ولدي أنا ! وتبرأ مني ؟

يفتاح

أيُّها الحفنة الرميِّم من الطيبة، والكُدس من جراح أثيمة،
لا، وراحيل، ما تبرأت من وجهٍ تهاوى عليه طيفُ الأمومة.

المسحدر الثاني

يفتاح وحده

ربُّ يكفيك ذلتي في حياةٍ وفرة الصبر، وفرة الآلام،
أثرى يطلع الصُّباح، ويفنى اليوم في غربة الزمان الدامي ؟

يلتفت إلى حيث مضت أمه

ذهبت تنشر الصُّراخ وجيعاً، وإخال احتضاره في ضلوعي،
ويكاد البُعاد يحجبها عني، وتبقى برّاقةً في دموعي ؛
تركنتي إلف التأمّل في حالي، وفي طالعي الوجيع القروح،
ورمّني سحابةً في فضاء التّيه، العوبة بكفّ الرّيح.

رأى مجنونة لها ! أم كلام الوحي حرفاً حرفاً رماه الله ؟
وإلى مَ الكتمان في أمر سرّ بدأت تلتقي عليه الشفاء ؟
حيرة مرة تهدم نفسي، وتريني الحياة حرقى الكلام
أي هول غداة تعرف راحيل، وأي ارتعاش في صميمي !
بين خطبين صارخين بصدري: ذلّ أهلي، وجرح آمالي بنتي،
كيف أحياء، وكيف أسحب رجلي على الأرض، وهي تنهار تحتي !
مستقر الرأي

لا وأمضي طلقاً ووجهي إلى الأحرار، أقضي حق الأباة العوادي،
إن يفتني الفرع المجلجل كبراً، لا يفتني الردى فداءً بلادي.
فتراني راحيل في النصر، أوفي الموت، أسمى مني ولم أمح ذلي،
وإذا يذكرون ذلي لديها، تلتقيهم براية أو بنصل !
يحاول أتحذّ درعه عن المحرقة فلا يجده.

المسحدر الثالث

يفتاح، راحيل

راحيل

فرحة، تحمل طاقة من الزهر
إلى الحرب، يا أبي ؟

يفتاح
بل إلى النصر .

راحيل

هنيئاً لنا افتداء الديار !
أنا أهواك، يا أبي، قِبلةَ الناسِ، عقيدَ الفوارسِ الأحرارِ .
أنا أهواك، حاملَ الرايِ سمحاءَ، ومستقبلَ الطَّعانِ سخياً،
بين لمع الحِرابِ، بين المواضي، يخفق النصر من حوالبك حياً .
تخلع المجدَ والهناءَ على جلعادَ، فجرأً مجرراً الأردانَ،
فيقولون في لقائك : « حرٌّ » ويقولون : « بنتُهُ »، وكفاني !

يفتاح

تعشقين العلي .

راحيل

وأعشقه في والدٍ، مُطلعُ العلي من طباهُ،
فهو مُعطيٌ رُفرفاتي إلى المجدِ، ومغنيٌ عن علي في سواهُ .
تبدأ الفاجعة تراءى علي وجه يفتاح، ويتابع ذلك في كل من المشاهد
التي فيها يلتقي يفتاح ببنته .
عجبٌ ما لوجهك أصفرَ وأنهدَ رُواءُ ؟

يفتاح

راحيلُ، نخلي المفاخرُ .

راحيل

لِمَ يا والدي ؟ ونحن ...

يفتاح

كباقي الخلق .

راحيل

لا لا، ونحن أسمى مآثر ؛

نحن فرع الأمجاد. ليس «شكيم» في ذوينا، وليس «يفتاح» ...

يفتاح

يكفي !

لا تزيدني، راحيل، لا تتجني !

راحيل

متعجبة

أي ذنب أتيته؟ أي خسف !

أنا عرضت، عن قلبي، بالدليلين: شكيم، وتربه يفتاحا؛

مائي، ذكره ظلام؛ وحي، يجرح الخاطر اسمه والصباحا.

يفتاح

لا تضلني، راحيل، في كف يفتاح أمانني الأحرار من جلعادا.

بطل لا يخب في ملعب المجد سواه، إذا الفخار تنادى.

أذكرى الحرب، وأذكرى الذل، يا راحيل، «عمّون» في حمانا يجور،
عانت فينا: الربوع فقر، وأهلوها جباه زلّفى له ونُحور.
لا وليّ يقودنا ...

راحيل
لا وليّ؟!!

يفتاح
غيرَ يفتاح.

راحيل
والذلّيلُ ذليلُ!

يفتاح
أقصري في المقال! إن يمش يفتاح إلى الحرب، فاللهات صليل،
والجباه الخنوعُ غضبةٌ مجد، والبلاد ارتعاشة شماء.

راحيل

بغضب
يا «لجلاء»! يلجأون إلى النذل، فأين الأحرار؟ أين الإباء؟

تشير إلى أبيها
أين جلعاء، فارس الظفر الزاهي، أبي، أين سيفك المسلول؟

يفتاح

كأنه يتحسر

لست في الحرب قرن يفتاح.

راحيل

ما قلت ؟ وأمساً قامت إليك السُّهول
في رجالٍ أكابرٍ مرَّغوا الكبر اتضاعاً على تراب الدار ؛
بسمه منك أرقصتهم فماجوا طرباً يلتقون لمع انتصار ،
هتفوا فيك للولي المفدى ، والتفاك الشيوخ بالصَّولجان ،
وإذا ازورَّ عنه طرفك ، مادت بهم الأرض في ثياب الهوان .
ثقة فوقها اتكال على الله فهل ذاق مثلها يفتاح ؟

يفتاح

لا تقيسي به كمياً أياً ، تخشع البيض دونه ، والرماح .

راحيل

أنت أعلى سيفاً ، أراك صقيلاً سلَّه الله مشرقاً في البرية ،
بطل فيك من يشوع مُعيد الشمس ، ليلاً ، بضربة علوية ،
تقتل الزند من تجهم لبنان ، وتلهو بالموت حمر بنانك ،
وتكاد الذرى تطايب كفيك وتصغي لحمحات حصانك ؛
أنت أعلى .

يفتاح
لا، بنتِ!

راحيل

بنفاد صبر

ما أنت جلعاد؟!

يفتاح
بلى، بنتِ ولأقل هو بعدي

راحيل

أين منك الوضعُ؟

يفتاح

وحده

رَبِّي، كفاني!

راحيل
أين منك اللامكتسي بالمجدِ؟

ذُل يفتاح...

يفتاح

بسطوة وقد نفذ صبره

بنتِ، هاتي مجني ونبالي والسيف.

تخرج راحيل

يا ويلاهُ !

أيّ خطبٍ إن يفتضح لك سرّي، يا ملاكاً يفتاحُ كان أباهُ !
عُمُرُ قاتمٌ يمرُّ ولا ينشَقُّ، قبل انهياره، عن هناءٍ،
فذلُّ ابن آدمٍ بيديه، لا بذنب الأجداد والآباء ؟!

يحسّ وحشة الانفراد

أين راحيلُ؟ بتّ أخشى انفرادي، وأرى الأفقَ مسحاً من سوادٍ،
ثقلت أضلعي على قلبي الكاهل، واهزورقت قوى أجلادي،
ويكاد الجثمان ينهار عني، ويكاد الهواء يأبى نهوضي،
أين راحيلُ أرتمي في يديها، وقعة النسر والجناح المهيض ؟
يستند تعباً إلى المحرقة

راحيل

وقد عادت بالسلاح

والدي، ما اعتراك؟ رعدة خوفٍ وعلى كفك انتصار الغداة؟!

يفتاح

وقد استيقظ من ذهوله وآلامه

لا، وعينيك، لم أخف! وسواء وقع دنيا، عندي، ووقع حصاة.
وإلى الملتقى.

يأخذ السلاح ويخرج

راحيل

على بركات الله مسراك، والتفاتُ سيهايمك !
تفتدي روحك البلاد، إذا عزّت، ولم يكفها افتدائُ حسامك.

المستحدر الرابع

راحيل وحدها

كلُّ شيءٍ حولي تغير من عهد، ونفسي في خيرة وظنون،
وإذا التقى أبي فعلى حزنٍ وعهدي به ضحكُ الجبينِ .
أيُّ سرٍّ يحوطني بقنوطٍ، وأنا بعدُ، في ربيع الشباب ؟
لم تمرُّ الأحلام في خاطري بعد، ولم تحظْ في الدُّجى بجوابي .
منعوني بالأمس لقيا التي جئت تنادي باسمي، وتطلب خدري،
ورموني في عزلةٍ أجْدُ الأفواه همساً، والعينَ لفتةٍ سرّاً .

أغانٍ من الداخل

رجعي، يا رياح،

هينماتِ الهناء ؛

وأفتحني باب السماء

للعذارى الملاح .

راحيل

متجهمة الوجه

مُنشَدات! والناسُ في غمرةِ الذُلِّ، وسيفُ العُداةِ في جلعاد؟!
مُنشَدات أم خالعاتٌ على الأبطال روحاً رَدَّ الجهادَ جهاداً؟!

اغاني من الداخل
رجعي، يا رياح،
زمزماتِ القنا،
وأجتنني طيبَ المني
عن سيوفِ صباخ.

راحيل

فرحة

نَعْمَ ناصبُ المني، أحمر الإرعاد، يَنشَقُّ في رحابِ الفضاءِ،
لو يحولُ ارتعاشُهُ في صُدرِ الناسِ، شالت بِهِم إلى العلياء!

إلى المغنّيات

يا عذارى جلعاد، غنّين بالسيف، وهجن الرُّبى، وهجن الصُّخورا،
وآمتشقن الرّجال من حُلل الأطياف، وابعثنهم لهيباً ونورا.

تغني على النغم نفسه

غنّ، يا جبلي،
بالأمانى السّماخ،

وَأَمْتَشَقُ أَحْلَى الرِّمَاحِ
رَيْدَ الْبَطْلِ .

...

فَارَسْ أَمَّنَا
بِالْوَغِ الْأَمَلِ،
يَرْتَقِي أَسْمَى الْقُلَلِ،
يُرْقِصُ الزَّمَنَّا .

...

قُمْ بِنَاءِ يَا جَبَلُ،
نَحْتَفِي بِالشُّرُوقِ .
لَكَ لَوْ تَدْرِي حَقُّوقُ
مِثْلَمَا لِلدُّوَلِ !

سِتَار

الله طوره

يا روعة القدم المظلة
خلل الترفع والمذلة،
سيان ارقصت الزمان
وشدت فوق يدك جهلة؛
انا دون هيكلك الرفيع
ابثك الاجلال كله.
جرحت آهاتي، وألقاها
على شفتي نهلة؛
ما شئت كوني ! فالألوهة
في وشاحك مستظلة !

الفصل الثاني

المسحدر الأول

راحيل ثم تamar

راحيل

ملعبَ النور، ملعبَ العطر، يا جلعاد، ها أنت قَدّة من ظلامٍ؛
خُصِّبت دُكْنُهُ جمالَ حواشيك، فبهج الضحى بظلك دام!
لم يجئ بعد مُنبئٌ عن لظى الحرب، وعن قرنٍ والدي في الطعانِ
قيل: إن يدخل الواقعة يفتح يرجع جلعاد في الميدانِ
وإذا أنكر انتصاراً على النذل، فلا أنكر الظروف العجبا،
رفض الحرب، مثل جلعاد، بالأمس، فهل يلتوي الدليل رغباً؟
هي تamar، خدنتي، تحمل الأنباء بكراً من الثقاتِ الناسِ،
ذكرت حيرتي فجاءت، ولا بدّ، إلى عزلي بكلّ مؤاس.

تamar

بشرنا، أختي، بشرنا! رَضِيَ اليفتاح!

راحيل

جوزيتِ أَلْفَ بُشْرَى لبُشْرَى !

تامار

صُبْحَ أَمْسٍ أَتَتْخِي. وَمَا هِيَ حَتَّى خَاضَهَا يُلْهَبَ الْبَوَاسِلُ طُرًّا
مَا دَرِينَا إِلَّا مَسَاءً، فَقَمْنَا فِي قَرَابِينَ بَكْرٍ وَصَلَاةٍ ؛
أُنْظِرِيهَا، جَلْعَادَ، قِطْعَةَ نَارٍ تَتَدَانِي مِنْ مَبْدَعِ الْكَائِنَاتِ:
الْحَنَايَا مَعَابِدَ وَصَلَاةَ، وَالْأَيَادِي كِنَارَةَ وَدَفُوفَ،
وَانْظُرِي الْجَوَّ دَفْقَةً مِنْ أَغَانٍ مَسْمُوعِ الْكَوْنِ دُونَهُنَّ رَهِيْفَ ؛
وَانْظُرِي الْحُلْمَ...

راحيل

أَيُّ حُلْمٍ تَذَكَّرْتُ وَجِيعِ الْأَلْوَانِ مِلْءَ جَفُونِي ؟
فِي مَنَامِي رَأَيْتُ سَيْفَ دِمَاءٍ ...

تامار

مقاطعة

سَيْفُ يَفْتَاكِ فِي بَنِي عَمُّونَ ؛

فاطمة.

راحيل

لَا طَرِبْتُ ! حَلْمِي مَخِيفٌ يَمْلَأُ الصَّدْرَ رَعْبُهُ وَالْمَآقِي،
فِيهِ زَهْوُ الْبَيَاضِ يَرْقُصُ مِغْنَاجًا عَلَى حُمْرَةِ الدَّمِ الْمُهْرَاقِ:

كنتُ في الحلم طُلُقَةً الوجه والقلب، كورقاء في الربى غناء،
 حسدتني الزُّهْرُ العُلى، حسدتني المُنِيَّةُ البكرُ في هوى عذراء،
 حين نوديتُ من على أنْ دَعَى جلعاد، والنصر، واقبعي في الظلام.
 فعصيتُ السماءَ — عفوك، ربي! — وإذا قبِلتي بريقَ حسام،
 وعصورٌ تدور حولي سِراعاً، فكانَ الزَّمانُ شقَّ السُّتورا،
 عاصفُ الرِّيحِ بات صوتَ صراخ، وسواقي «جلعاد» دمعاً غزيراً.

تامار

بخوف

أَيُّ حلمٍ، راحيل !

راحيل

ما زلتُ حيرى في رُؤاهُ على توقُّع خطبٍ ؛
 وأجسُّ المساء ملء جفوني، وعلى بسمتي الجريح، وقلبي !

تامار

حدَّقِي، أُختِ: في البعيد سيوفُ لامعاتٍ بين الغبار، وخيلُ.

راحيل

وقد ازداد تشاؤمها

أتراهم فرسانَ عمّون في نصر، جرى خلفهم من السَّبي سَيْلٌ ؟
 ملأوا السَّهل والرُّبى، فعلى جلعاد ظلٌّ من الدُّجى والفناء،
 لا رجالٌ تذود عن قدسنا، والنَّاسُ تمشي في الدُّلِ مِشيَةً شاء.

يكون التشاؤم قد بلغ منها حدًا قصيًا.

يا صباحَ الدمار، أين غسولُ العار ينصبُّ من فجاج السماء!!
أين من ينثر النجوم صخوراً، ويكبّ النيران في الأرجاء!
يترك الموت مفلتاً في البرايا، ويهدّ الجبال فوق الجبال،
يعجنّ البیدَ بالبحارِ هؤولاً، عاصفاتٍ رياحها بالزوال،
ويعيد الغمرَ القديمَ يعيد الليل بالويل زاحفاً والمنيّة!
إن تخلّلت غنا السما لا تعالت أو تجاهت على جمال البريّة!

المستحدر الثاني

راحيل، تamar، المجنونة

المجنونة

عِشْرُونَ أَلْفَ أَسِيرٍ

راحيل

بحسرة

أَتُرَاهَا الْبُشْرَى ؟ ..

المجنونة

وَأَلْفُ قَتِيلٍ

راحيل

بعض

حبذا لو قَضُوا جميعاً.

المجنونة

قضاءً علويّ !

راحيل

قضاءً شعبٍ ذليلٍ !

المجنونة

ومئاتٌ من الخيول السَّنيَّاتِ، وعشرونَ وزنةً من نُصارٍ.

راحيل

لا ذكرتِ الأموال !

المجنونة

لِمَ لا ؟

تامار

ويفتاح ؟

راحيل

بحسرة وهزء

وحامي الحمى ؟ وحامي الذُّمارِ ؟!

المجنونة
بين لمع الحراب... بين الأسارى...

راحيل

مقاطعة

يا أذلَّ العُبدان في عَمَّونِ !
قدتْ جلعادَ من مذلة هُونٍ أوجعتهم إلى مذلة هُونِ !
رُحتْ ...

المجنونة
راحيل ! ..

راحيل
رُحتْ عبداً، وعبداً عدتْ ...

المجنونة
راحيل ! ..

راحيل
لو رَجعتَ قتيلا !
عدتْ حياً تجرُّر القيدَ ...

المجنونة
قلتِ القيدَ ؟!

راحيل

يبقى ذاك الدليلُ ذليلاً !

المجنونة

ما تقولين؟ ما تقولين، راحيل؟ ويفتاح قبلةُ الأمصار،
أنزل العزَّ في الربوع، وخلَّاهَا انتصاراً يختال إثر انتصار.

راحيل

ما تقولين، يا عجوز، انتصرنا؟ نحنُ؟!!

المجنونة

نصرأ غنت به البيداء !

وكانَّ الفرح قد زاد في خيلها

كنتُ في الحرب كلَّ شيء، وكان العِرْقُ مني يشاء ما لا يُشاء

تامار

لراحيل

من تكون العجوز ؟

راحيل

مجنونةٌ تهذي؛ دعيك، الجنونُ حرٌّ وبردٌ ؟!

المجنونة

أنا قدت الرجال.. عِرقي.. ولدي... أنا أمُّ الحُسام والكُلُّ غمدُ

راحيل

بإشفاق

هاجت المرأة الشقيّة.

يسمع غناء من الداخل

تامار

لكن أتراني بما رَوّوا بُلبلتُ

العذارى في فرحة وغناء، أَصبتُ الهدى أنا أم خِطِلتُ ؟

راحيل

بحسرة

جَالٌ في خاطري انتصارٌ، فأَمسى هَدياناً مُراً على هَديانٍ ؛
أَمَلٌ أَشرقت جوانبُه، وانشَقَّ عند استقباله عن هَوَانٍ.

المجنونة

ممسكة براحيل وقد أوشكت أن تخرج
أَيْنَ تمضين، يا ابنة الظافر الغالي ؟؟

راحيل

دعيني، واخُلي معالم داري.

المجنونة

تطرديني !؟

راحيل

بإشفاقٍ وندمٍ

طردتها، وبصدري بعض ميلٍ لها، وبعض وقارٍ.

المسحدر الثالث

المجنونة وحدها

سكوت طويل تسند المرسح في خلاله أغاني تجيء من بعيد. وفجأة
تلتفت المجنونة الى الداخل فرحة، وكأنَّ العارض قد خفت وطأته
قرب الظافرون من منشدات النصر، يجري جلعاد فيهم حُبورا،
مائجُ الاخضرار في الرّونق الطلق كأنَّ زاده الرجال حضوراً.
خلعوا فوقه البطولة أبراداً، وشكُّوا الطُّبى عليه نجوماً،
أيُّ قرنٍ أمامهم يعتلي المهر المُجَلِّي، ويستطير الغيوماً.
فارسٌ قدَّه المضاء من الشَّم الرواسي، والشرع الأسياف،
قربي منه، قربي منه، راحيل، وبشي لقياء طيب القوافي.
يسمع غناء فتاة غريبة، فتقابله المجنونة وكأنَّ العارض قد عاودها
وأزيحي عن دَرَبه قينةً دكناء تشدوه نغمةً دكناء،
الغناء الغناء عصفة إرعاد، وأشباح مائم تناءى،
صرخات غريبة توجع الصُّبح، وجهش على السَّنى، واحتضار،

أَيْنَ رَاحِيلُ تَمَلُّ الأَفُقَ تَحْنَانًا فَيَغْوِي عَلَى يَدَيْهَا النَّهَارُ؟
قَدَّمَتَهَا عِذْرَاءَ قَسْرَاءَ، وَأَلْقَتَهَا أَمَامَ الْقِيَانِ، بَيْنَ الدُّفُوفِ.

يَرْتَفِعُ صَوْتُ رَاحِيلَ، فَتَعُودُ الْمَجْنُونَةُ إِلَى هَلْوَيْهَا
أَنْشُدِيهِ، رَاحِيلُ، أَشْجِي مِنَ الْحَبِّ، وَأَسْمِي مِنَ اصْطِكَكَ السُّيُوفِ،
وَابْعَثِي اللَّحْنَ رَافِلًا، وَامْلِئِيهِ بِحَفِيفِ الْجَوَانِحِ الْبَيْضَاءِ،
فِي أَنْاشِيدِكَ الْفَتِيَّةِ شَيْءٌ مِنْ خِضَابِ الْأَسَى، وَلَوْنِ الْهِنَاءِ.

بِدَهْشَةٍ، وَقَدْ عَاوَدَهَا الْعَارِضُ
مَا دَهَى مَوْكِبَ الْعَلَى؟ أَجْفَلَ الْفَارِسُ، أَمْ مَادَتِ الرَّبِّيَ بِالْجَوَادِ؟
أَمَرَ النَّاسَ بِالرُّجُوعِ وَأَلْوَى كَاسَفَ الْوَجْهِ، وَاهِيَ الْأَجْلَادِ.
مُسْتَضَامٌ، تَرَجَّلَ الْآنَ، وَانْهَالَ عَلَى الْمُنْشِدَاتِ يَصْرُخُ ذَعْرًا.
هَرَبَتْ مِنْهُ لَوْلَوَاتُ بِلَادِي، غَيْرَ رَاحِيلَ، فَهِيَ تَهْتَفُ بِبَشَرَا.
وَهُوَ سَاجٍ، يُلْوِي عَلَيْهَا وَتُلْوِي: دَفْقَةٌ مِنْ سُنَى عَلَى لَبْنَانِ،
أَيَّ سِرٍّ فِي قَلْبِهِ يَتْرَكَ الصَّبْحَ مَرِيضًا فِي غَمْرَةِ الْأَحْزَانِ؟
فَالرَّوَابِي مِثْلُ ازْوَرَارٍ عَنِ الْهَدْيِ، وَمِثْلُ اخْتِلَاجَةٍ وَانْتِهَاءِ،
وَالْهَدْوُ الرَّحِيبُ، وَالْقَيْظُ وَالنَّارُ انْهِيَارُ الْفَضَاءِ تَلَوَ الْفَضَاءِ.

بَعْدَ سَكُوتٍ وَتَأَمُّلٍ
لَمْ تُرَى الظَّافِرُ الْمُجْلِبِبُ بِالْقُوَّةِ، يَبْدُو مَجْرَحًا بِالذُّهُولِ،
يَمْسَحُ الدَّمْعَ خَفِيَّةً عَنِ عَيُونِ النَّاسِ، عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنْ رَاحِيلَ!

سكوت طويل، أغاني مُبهمة تجيء من بعيد. تقعد المجنونة دون
تعمد في ظل المحرقة بحيث لا يراها الداخلان

المشهد الرابع

المجنونة، يفتاح، راحيل

راحيل

هات، يا والدي، عن الحرب، فالدمع بعينيك رية في انتصارك،
والتقاء الحسان بالبسمة الحرى دليل انتحابة في قرارك،
أتراها هزيمة؟

يفتاح

لا، وراحيل، ويفتاح في انتصار فرد :
أنزل العز بيننا، وكسانا برد مجد رحب على برد مجد،
فجر نصر يحيا على الأعصر الغر، وتشدو جلاله البیداء؛
عاد يفتاح بالغنائم والأسرى كأن للعلی هو اللألاء.
ضرب الضربة السخية في عمون، فانهت عزها بحسامه،
حصد الهام، فالتلال تجلن بهام وقف على أقدامه.
لقي الجيش في «عروعر» صباحاً، ينزل الرعب دققه، والظلاما،
تتنزى الهيمات عن جانيبه، فيخال التهديد منه حماما،

لا انتهاء له، ولا وهن يُضرب منه، فتبدأ الهيجاء.
 وتلوت رجالنا مضض الحيران لاقته فجأة نجلاء؛
 لم يُطقها يفتاح وقفة جبن؛ وعلا صوته يُصم الرياح،
 أمر القوم بالهجوم، وبالموت، فأدمى السنن، وأدمى الصباح،
 كم نفوس تناثرت والعوالي، وجسوم تعانقت المواضي،
 خطبة السيف خطبة الحق، والكاسي ثياب الدماء كاسي البياض.
 صخب الحاملين ملء الصحارى، ونزاع الفرسان ملء البرايا،
 والتلال الدكناء من جثث الأبطال، والأفق من لهاث الضحايا.
 يتهادى يفتاح في مطلع الجيش، على عزة الأبى الظافر؛
 قيل: مستقيل، وقيل: شجاع عشقته، فهادنته البواتر.
 يتحاشى عن الجبان، ويجري عارضاً صدره على المقدام،
 فإذا يلتقيه في فجأة الطالب، يرمي بنفسه للحسام.
 وتردى النهار بالدم فانزاح، ووافى المساء قبل المساء؛
 ورأى الناس عمرهم مثقل الخطو، كسولاً إلى لقاء القضاء؛
 فتنادى عصف المنية فيهم، تتجافى منه الرُبي والسُّهول،
 وإذا فجعة الحراب فناء، يتلوى على العدى، ويميل؛
 وإذا دفقة من البدر تجلو أكمات الأحياء والأموات،
 عرف الناس أي حظ أصابوا، فإذا السيف في ظهور العداة.
 وسرى الفتح من «عروعر»، يبغي حد «منيت» والقرى العشرينا،
 وعلى رقصة السنن والأغاني داس يفتاح في بني عمونا.

راحيل

طبت، كِنَارَتِي. تَغْنِي تَغْنِي! واصنع، يا كُونُ، واطربي، يا سماءُ!
وتباهني بها بطولة قومٍ، هم جبينٌ إلى العُلى وُضَاءُ!
واملائي الأرض باسم ربك مجداً، باسم جلعاد، زيد مجداً أثيلاً،
واقطفي الشَّهب للذي رأسه فوق، وصوغي لشعره الإكليلا!
تلفت إلى الداخل كأنَّها تناجي يفتاح، بينما يفتاح إلى جنبها يكظم
دموعه وآلامه

يا بريق الآمال، يا جانبي المجد، رعاك الجلال من لبنان،
واشرأبت زُرُق النجوم تحييك بشتى الأضواء والألوان.
يا صلاة الرجوع لله بعد الكفر، بعد المَحلولكات الخطوب،
ذكرتك العذراء في صفوة البال، وفي هجعة بحضن الحبيب.
عفو أردانك النقية، يا يفتاح، عفو الرمال تحت خطاكا!
أنا جدفت، من غروري، على القدس، غداة اقتربتُ من ذكراكا.

يفتاح

عدت، بنتي، إلى الصواب، وألفيت، ليفتاح جودة أخت نصل.

راحيل

جودة؟ لا. وليتني أعرف الظافر في مثلٍ والدي طيب أصل.

يفتاح

تظلمين اليفتاح، راحيل.

راحيل

لم أَظْلِمَ. وَحَقُّ تَكْبُرِي وَاعْتِرَازِي !

تشير إلى أبيها، وكأنما تذكره بالكبر الذي ربّاهَا عليه

وَأَبِي بَنِي النَّيَاسِمِ مِنْ رِيهِ الرَّوَاسِي، وَمِنْ شَمْوَخِ الْبَازِ.
عَشْتُ فِي قَرْبِهِ، يَتِيمَةً أُمِّ، فَأَنَا مِنْهُ دَنِيوَاتُ الْهَنَاءِ؛
مَا لَهُ مُنِيَّةٌ سِوَايَ، وَلَا لَهْوٌ؛ يَرِينِي فِي الْأَرْضِ ظِلُّ السَّمَاءِ.
كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي عِلَاءٌ وَكِبَرٌ، كُلُّ شَيْءٍ مَلُونٌ بِالْكَمَالِ.
مَا قَرَأْتُ التَّارِيخَ إِلَّا جَلِيلًا، فِي فَمِ يَبْعَثُ الْكَلَامَ لَآلِي؛
أَوْ رَأَيْتُ الْأَعْمَالَ إِلَّا كِبَارًا، مِنْ يَدِ خَصْبَةِ النَّدَى وَالسَّمَاحِ؛
وَكِتَابِي أَبِي، أَرَى فِيهِ مِنْ مُوسَى، كَلِيمِ الْعُلَى، وَمِنْ يَفْتَاكِ.
وَإِذَا نَلْتَقِي عَلَى ذِكْرِ أُمِّي، فَفَضَاءٌ مَغْرُورِقٌ بِالشُّعَاعِ،
أَوْ نَغْنِي بِمَكْرُمَاتِ جَدُودِي، فَرِبَاعٌ غَرَاءٌ إِثْرَ رِبَاعِ.
خَلَّنِي، خَلَّنِي، عَلَى ذِكْرِ يَفْتَاكِ، أَرَى فِيكَ أَطِيبَ النَّاسِ ذِكْرًا؛
وَإِذَا تَشَرَّفْتُ الْبِلَادُ بِيَفْتَاكِ وَجَلْعَادِ، تَلْتَقِيكَ الْأَبْرَارُ.
هَاتِ خَبْرَ عَنِ رَوْعَةِ الْحَرْبِ وَالنَّصْرِ، وَعَنْ بُسْلٍ لَدَيْكَ أَجَادُوا.

يفتاح

كُلُّهُمْ بِاسْلُ.

راحيل

وَأَيُّ الرِّجَالِ الْغُرِّ جَلِّي؟ يَفْتَاكِ أَمْ جَلْعَادُ؟

يفتاح

وحده

ربّ !

راحيل

قلّها بلا اتضاع !

يفتاح

بعد تحيّر

كلانا.

راحيل

لا ! وأنت المجرّر المجدّد أصلاً ؛
هو في الطّعن عدلٌ ماأنت، لكنّ لك أصلٌ يُرخي على الشّمس ظلّاً.

يفتاح

ما تقولين؟ بعد لألة النّصر، وبعد ارتعاشة الرّايات،
بعد خوض الطّعان مرتفع الرّأس، وخلع العلى على السّاحات،
بعد نسج الشّمس بردة مجدّ، لا ترين اليفتاح غير وضيع؟!

راحيل

هو ما قلّت، يا أبي،

يفتاح

وجلاء الفتح، يا بنت، عن غوالي الربوع،
وانتشار الأطفال من غمرة الموت، ومنع المخدرات النساء،
وحماء الأطهار فينا العذارى، من فجور الوحاحاح الأعداء،
والفعال الغر العلى، من أتاها غير يفتاح ؟

راحيل

انت، والامجاد.

يفتاح

ما انا والرجال الا دمي خرس، ولولا يفتاح، صم جماد.
بت فينا العلى، وقاد الشتات النزر منا، مجرحاً، ملتاعاً،
فاذا نحن نقتفي إثر يفتاح فتمضي إلى الخيال سراعاً.
نحن، لولا اليفتاح ...

راحيل

تقاطعه بمثل الغضب والعتاب

يكفي ! تراءى لك سمح الطعان سمح الأصلر؛
إمتدح طعنة الموفق، يا جلعاد، لا تمتدح ذراع الأذل.

يفتاح

وحده

رب !

راحيل

حاربت جنبه، فغزا قلبك بالوفّر من جميل الطعان،
ونسيت الأصل الذليل؟!

يفتاح
أناة...

راحيل

مستطردة

واشتريت العلى له بالسّنان!!؟

والدي، يا سليل مجد عريق، لي رجاء إلى هواك، وحيد:
لا تجد في الفعال مغفرة الذلّ، فلا يشتري أبّ وجدود.
أنا أخشى مغبة وفرة الشرّ، إذا يمحي الخنى في الوليد؛
يطهر المرء وهو يرعى رؤى اللعن بثغر الحفيد قبل الحفيد.
لا أطيع امتداح يفتاح من فيك، فدعني أمضي.

تخرج

الشيخ زكريا

يفتاح، المجنونة

يفتاح

حنائك ! ربّي،
أيّ كأسٍ تذيّقني، يوم نصري، من دمائي ومن حشاشة قلبي؟!
أنا كفّرت عن خطيئة آبائي بعمرٍ من الأسى والعذاب،
واعترلت الدنيا اغتفاراً، وضحيّت هنائي، تقرّباً، وشبابي !
ونذرت الثمين والسّمح قربانَ ظهوري على العديّ، وثارى،
وتماذيت أنذر الغادة العذراء أولى المغنيات انتصاري،
وإذا ألتقي جموع العذارى، تتراءى راحيلُ نصبٍ جفوني ؛
وأشبح الأنظار عنها فألقى، ما تلفّت، وجهها يلتقيني ؛
وسأقضي، يا ربّ، بعدُ على بنتي، فيا ربّ، هل كفتك المنية؟!

المجنونة

تكون قد تركت مكانها والتقت يفتاح وجهاً لوجه
ويلك، يفتاح، ما يُراود عينيك ؟

يفتاح

هارباً

دعيني، نذرتُ بنتي ضحيّة !

الشَّهَدُ السَّادِسُ

المجنونة، ثم راحيل

المجنونة

أَيَّ نَذْرٍ يَفْتَا ح، لَا شَرْعَةً اللَّهُ رَأَتْهُ، وَلَا بَلَاءُ السِّنِينَ !
أَنَا مَجْنُونَةٌ، وَأَنْتَ عَلَى رَشْدٍ ! فَخُذْ مِنْ فَمِي رِشَادَ الْجُنُونِ.

تَدْخُلُ رَاحِيلُ فَرْتَمِي الْمَجْنُونَةَ دُونَهَا ضَارِعَةً

أَهْجَرِي، بِنْتِ، مُضْرِبَ الظَّافِرِ الدَّامِي، وَخَلِّي مَطَارِفَ الْأَرْجَوَانِ،
وَتَعَالَى إِلَى حَيَاةِ الْبَرَارِيِّ، فَهِيَ أَبْهَى مِنْ بَهْجَةِ الصُّوْلِجَانِ.

راحيل

مَتَذَكَّرَةُ الْحَلَمِ

صَوْتُ حَلْمِي !

المجنونة

تَعْجَلِي، فَهَنَاءُ الْعَمْرِ مَرْمَى فَرَّاشَةٍ مِنْ سَرَاج !

راحيل

تَعُودُ إِلَى نَفْسِهَا وَكَأَنَّهَا تَهْزَأُ مِنَ الْمَجْنُونَةِ

أَهْجَرُ الْبَيْتِ مِثْلَ مَجْنُونَةٍ ؟

المجنونة

لَا، مِثْلَ مَنْ يَتَّقِي جُنُونَ التَّاجِ !

أُسْرَعِي، بِنْتِ.

راحيل

في حنانك شيء من أبي في تعطفٍ وتمنٍ .

المجنونة

في تمنيه ؟ في تعطفه ؟ لا .

راحيل

بعجب

أنت تأبين ؟

المجنونة

بحسرة واعتزاز

كل ما فيه مني .

راحيل

بقلق

من تكونين ؟ يا عجوز ؟

المجنونة

دعيني واهربي قبلما يفوت الأوان .

راحيل

وقد تزايد قلقها

أنبئيني من أنت أتبعك .

المجنونة

خلّيني وشأني فكل ما بي هوان !

راحيل

تهزُّها فاقدة الصبر

هل تقولين ؟

المجنونة

لم أعد في جنوني فأزيد الضنى بقلب حزين ،

أهربي .

راحيل

إن كشفت سرّك .

المجنونة

لا ! لا !

راحيل

لِمَ تأبين ؟

المجنونة

لم أعد في جنوني .

ترى يفتاح مقبلاً

قرب السيف ، فاتقي السيف ، راحيل !

راحيل

بحيرة

أبي !

الشَّهَد السَّابِع

المجنونة، يفتاح

يفتاح

يكون قد رأى أمه وبنته معاً

مَنْ أرى ؟ خباءك، بنتي.

المجنونة

وقد حُولت تضرُّعاتها إلى يفتاح بعد أن خرجت راحيل
رحمةً بالجمال، بالرَّونق الضَّاحي، بزهر بَكر الجمال ونبت !
رحمةً بالشَّباب ! ...

يفتاح

مَنْ قال ؟ ! ...

المجنونة

يفتاح ...

يفتاح
إلهي ! أسمع آسمي داري ؟!
إخفِضي الصَّوتَ.

المجنونة
عَفَوْ نصركَ، يَفْتَا حُ ..

يفتاح
آخفِضي الصَّوتَ عن نسيمِ سارِ
كلُّ شيءٍ في دارِ راحيلَ كَبُرَ، في ثراها، في المنحنى، في التُّلولِ،
إخفِضي الصَّوتَ يُجفِلُ المربعُ الداكي براحيلَ، أو هوى راحيلَ.

الشفهد الثاني يفتاح، المجنونة، راحيل

راحيل
يكون قد تقدَّمها جلبه من الداخل
والدي، والدي، أناثك بالنذر، ورُحماك بالعذارى الحسنانِ !

يفتاح

سمِعَتْنَا !؟

راحيل
رحماك، جلعاذ.

يفتاح

وحده

جلعاذ ؟

لراحيل
اطلبي، إن أردته، صولجاني.

راحيل
صولجان؟! أبي، بجلعاذ أبكار حسان نذرت منهن بكرا،
أعف عنها.

يفتاح
رَبِّي !

راحيل
وأبكار جلعاذ مروج الربيع نوراً وزهراً،
فتصور منهن مغناجٍ خصرٍ تتلوى على لظى النيران،
يلفح الوهجُ جبهةً من محياها، وثغراً لم تلقه شفتان؛
ويحرُّ اللهبُ زرقةً عينيها، فتغضي عن عالمٍ في أنهيار؛
ويغيم الخدان عن مسحٍ تراءى عرض اللظى والشرار؛
ويهبج الصدر المهدم أشلاء الأمانى ملوثة الأعناق،

مثلُ دنيا تموت، مثلُ خيالٍ يَمُحِي عن معالم الأحداق ؛
فالعصور الطهورُ ير كُضْنَ إِعراضاً عن الكون ضاق بالإثم صدرا.
ويغِيضُ الضياءُ عمداً، وَيَكِي الزهرُ ...

يفتاح

بنفاد صبر، وقد تصوّر بنته نفسها على المحرقة بهذا الشكل الذي تصفه
هي دون أن تعلم

راحيل، يا ربيعي الأغرا،
يا نشيد الأضواء، يا زُرْقَةَ الحُلُم، فداكِ السَّنى بسيف أبيك،
وقداكِ النُّصرُ المجلجل في الدنيا، ورجعُ الصَّلَاةِ والتَّبريكِ؛
أنتِ نَذري !

المجنونة

يفتاح !

يفتاح

أمي !

راحيل

باستفهام، فحسرة، بعد أن تنقل طرفها من يفتاح إلى المجنونة فتفهم كلَّ شيء
تُرى !؟ ...

المجنونة

يفتاح، رُدَّ الظلام فوق الظلام،
واطو من نصرِكَ البرودَ السنيَّاتِ، وزفَّ الدُّنيا سيوفاً دوامي،
واملا الأرضَ والمعالمَ شراً، وابعث الرِّيحَ بين جَهشٍ وجرحٍ،
وتحدَّ العُلى، ولا تغمسِ الكفَّ وتنهَّدْ في دمٍ منك سمحاً!
تمضي مولولة

راحيل

والدي، ما شجا فؤادي، عند الموت، غيرُ النِّداءِ: «يا يفتاحُ»
لنفسها

يا مُنَايَ البيضاء، كيف تموتين ويبقى هوى ويبقى صباحٌ؟!
أعشِقتِ الخريفَ، والكونَ صحوَّ علويٍّ، والرِّيحَ عطرًا تحفوقُ،
أم تصبَّاك نثرُ عقدك في النور، فيبكي غوى صباك الشُّروقُ،
وإذا في الأثير، منك جنازاتٌ، وغصَّاتُ آهةٍ وجراحُ!

اغاني من الداخل بعيدة :

رجعي، يا رياح،

هينمات الهناء،

وافتحني باب السماء

للعذارى الملاح

راحيل

العذارى يُنشدن، والأكم الخضراء تزهو بهن، والأدواح،
والأمانى بيضٌ على قُبب «الكرمل» والسَّهل هازجٌ بالعذارى،
وأنا ألتقي الحياة سواداً، وجلال الحياة دمعاً وعاراً!
والدي، أعطني، حنانك، شهرين أناجي، مدامها، آمالي ...

يفتاح

لكِ ما شئتِه !

راحيل

مستطردة

وأقطفُ عمري زهراتٍ بيضاً كوجهِ خيالي !

ستار

المجلد الحادي عشر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٢٧

الطبعة الثالثة مصححة ١٩٩١

إلى Q.A.

في الشجر

أيناً، في حبه الأول — ما اتفق له أن ردّد بين
يدي حسناؤه : « هل عند الوردّة، يا حبيبتّي، خبرٌ عن
عطرها ؟ هل تعي الوردّة أنّها الطريفة ذات الشّذا
المُسكّر ؟ »

المرأة من جمالها كالوردّة من أريجها ؟ لربّما بتقريب
كهذا نكون قلنا ما ماهيّة وَعْيٍ من ماهيّة لاوعي.

الوردّة لا تدرك أنّها الوردّة. وهو، على ما يقول العاشق،
موقفُ الحسناء من حسنّها.

(١) الشّعراء والعلماء، الذين استلهمت وإلّهم استندت في دعم هذه الخواطر،
أكثر من أن يذكرّوا.

روح مناجاته اذن أنّ فتاته لو درت ما جمالها لشاركت
الناس عبادة نفسها!..

بيد أنّ الوردية هي، على الحقيقة، غير واعية. أمّا المرأة
فشأنها آخر : جمالها، بعض صفاتها، سرّ وجودها، كلّ
ذلك قد يفوت منها قوى الوعي، ولكن يستحيل أن يفوت
قوى اللاوعي.

اللاوعي في الإنسان طاقةٌ ولا كأحد الوعي.

لا يستغرب هذا سوى اللامتمرس بأشياء العقل. أمّا
من كتب أو خطب أو تحدّث، ولو مرّة، حديثاً أخذاً
فلا يجهلها حقيقةً راهنة. إنّنا، على قول شارل بالي، إذ
نتكلّم فإنّما نتكلّم بشكل لاواعٍ، لا نفكر بألوف
التصورات يسلسلها فكرنا في كل جملة نبشر : بشكل
لاواعٍ. نتقي الألفاظ التي هي أقرب إلى الفهم أو أفعال
في الذهن، بشكل لاواعٍ ننحت لنا أحياناً صيغاً جديدة
ما كانت يوماً في اللغة وما ندري أي أصول مكتشفة
بالسرّ راحت توحىها إلينا في تلك الهنيهة، بل بشكل
لاواعٍ يتمّ أخيراً عمل الفاهم. وبقدر ما تكون فكرتنا
لاواعية تكون أسرع إلى فقّهه وتكون أدقّ وأعمق. وعلى

العكس، بقدر ما تغدو فكرتنا مدروسة تحليلية تغدو متعثرة دون فهم الفاهمين. وشُدَّما نرى لفظة أفلتت منا إفلاتاً، أو كان تلفظنا بها سبب دهشتنا نحن، تلج أفهام السوى بسهولة لا تعرفها جملة منطقية واضحة. ويخيل إليّ أن الفكرة اللاواعية وحدها تستهوي الناس. وما من شك في أن اللاوعي أفعال وسائل التفاهم.

وفي تحريات جول كومباريو أن الموسيقى، عند الموسيقى الحق، أوضح من الكلام. وما كان الكلام إلا ليزيدها إبهاماً. وهو يزعم أننا إذ « نفكر دونما مفهوم » فإنما نفعل لا لتخلي عن الأشياء التي يمثلها مفهومها بل، بالعكس، لنستولي عليها بأقوى.

عجيبة قوة اللاوعي، سواء في الكلام أو في الفهم. وإنها كذلك حتى في الأغراض التي تبدو أدعى إلى استخدام العقل.

أرى أن اللاوعي هو رأس حالات الشعر. ورأس حالات النثر الوعي.

قبل إبداع الشعر، بل في ذروة إبداعه، لا أكون واعياً في ذاتي ولا واحداً من الأشياء الواضحة. والثابت

(ويمكن الاستناد في ذلك إلى العالم هنري بوانكاريه)
أن لا أثر فكرياً ذا قيمة، رياضياً كان أم سياسياً، موسيقياً
أم شعرياً، تحقق في الضوء.

أمّا كتابتي النثر فتكون نتيجة لما عقلته سابقاً، نتيجة
لما استنجدته من فكر وتصوّر وعاطفة، ثمّ بتمام الوعي
أظهرته للناس متوسلاً اللغة.

النثر فكر، والفكرة نعيها، وهو صور والصورة نعيها،
وهو عواطف والعاطفة نعيها. عناصر النثر جميعاً عناصر
وعي. النثر في طبيعته وعي بوعي. أمّا الشعر فلا.

الشاعر في ذروة إبداعه لا تخامره أفكار، صور أو
عواطف، وهو إن خامره شيء منها أفسد عليه العمل.
عناصر الوعي (ولم أستثن العاطفة، صنم النظامين
الأفذاذ...) لا تلعب في الشعر أيّ دور.

لأواجه، ولو لمأماً، منشأ النثر.

لا مناص من الإقرار بأنّ الوعي هو نثر اللاوعي. فالفكرة
إذن، شأن الصورة والعاطفة، نثر الحالة الشعريّة، تعبير
عنها، باهت مخفّف، يدينها من أذهان الذوّاقة المحدود.

نتناول مجلّة ونقرأ :
... أحبك منكسر الطرف، خوف
انفلاتك من نظري طامع،
وأمسح من عبرتي في الخفاء
فلا تقعين على دامع.
وثرغك لي قلة الفلّ يائت
يتيمة ذاك الشذا المانع،
فذكرُ الربيع على سمعها
حرامٌ وذكرُ الهوى الرَّاجع !
ونقلب الصفحة فإذا الشرح...

وما الفرق ؟ الأبيات غمرتنا بحالة سرّية الماهية، لكنّها
تركنا غيرَ ما كنّا وفوق ما كنّا، ردّتنا أكثرَ تآلفاً مع
حقائق في الكون ثبّته، أمّا شرحها فلم يزدنا إلّا معرفة
بها، أعطانا علماً بحالة الشاعر، لم يعطينا الحالة.

الشعر ؟ إنه لسراة العقل، لطبقة مصطفاة، باستطاعتها
التذوق. أمّا النثر فللتلامذة — وقد يكونون خارج
المدارس...

الفرق بين الشعر والنثر ؟ إنه لكالفرق بين سماع
المعزوفة وقراءتها.

* * *

ما تُرى، يحدو بي حيناً إلى كتابة النثر وآخر إلى
إطلاع الشعر ؟

إنّ أنا باشرتُ العمل وكانت تهدر فيّ أشياء بوسع
قوى النفس أن تصل إليها، إن كانت لي أفكار وصور
وعواطف، وجدتني تلقائياً أملاً الصّفحة تلو الصّفحة نثراً.
أما إن كان في داخلي ما هو فوق طاقة تلك القوى،
إن كانت نفسي ذاتها في حالة فوق الوصف، خالصة،
لا تشوبها فكرة أو صورة أو عاطفة، حالة تُمكن ذاتها
من وعي ذاتها أعمق وأغنى، فأروح تلقائياً أُكوكب بياض
أوراقِي بالشعر.

الشعر من لاوعي والنثر من وعي.

* * *

سؤال : ما يفرّق الشعر عن سائر الفنون ؟
قبل التعبير عنه، أي عندما يكون لا يزال في ذات

الخيال لم يمتزج بعدُ بوسائل التعبير، يمكن الشعر وحده، أن يشمل الموسيقى، التصوير، الرقص، العمارة، وما إليها من جمال وراءه يدُ إنسان. قبل التعبير : حالة من اللاوعي واحدة، لا تبدل إلا إذا اتخذت شكلاً. تكون الموسيقى إذ نستخدم في إظهار الشعر نغماً، والعمارة إذ نستعمل رصف حجارة، والرقص إذ نتوسل إعماراً بجسم بشري هذه المرة.

الفنون ؟ لا فنون قبل التعبير.

* * *

أحاول التغلغل إلى جوهر الشعر، إلى مادته إن استجزت الكلمة.

فيما أنا أبداع أكون لاواعياً، فما أقدر إذن أن أعترف بما جرى لي. سوى أن نظرة على حالتي قبل الإبداع وبعده قد ترسل ضوءاً على السرّ.

« قبل » الإبداع و « بعد » ؟ ولكن متى تكون فترة الإبداع، وإلى كم تطول ؟ هل تبدأ من أول كلمة من مطلع القصيدة ولا تنتهي إلا بروي الختام ؟ لا، وفترة

العطاء الجَلَل، فترة اللاوعي هذه، نادراً ما تطول إلى أكثر من أبيات. سريعة العطب هي، تعمّر، في غالب ما تعمّر، مدى بيت أو فلذة من بيت.

إنها كالحالات النفسية الخالصة تكاد لا تكون حتى تقطّعها فكرة، صورة، عاطفة. فإذا الشاعر (ومن هنا عناصر النثر في القصيدة، كل قصيدة) وجهاً لوجه أمام الوعي. الملهم يواصل تحويراً وتبديلاً، ولربّما يستأنف استئنافاً، حتى يجد اللَّقِيَّة، أي حتى يعود إلى فترة من اللاوعي جديدة، أمّا النظام فيمضي في عمله غير آبه. فإذا هو ينظّم النثر.

« قبل » الإبداع و « بعد »ه يُعنيان إذن شاطئ تلك الفترة السعيدة من لاوعي النفس، التي لا تعمّر سوى هُنيئات.

قبل الإبداع يسيطر عليّ ما أُسمّيه نغم القصيدة. وبقدّر ما يكون عليّ عظيمًا أُطلع ما هو أكثر خلوصاً. ولم يتفق لي أن انشيت عن العمل البهّيّ إلّا أوان أفقد النغم، أي أوان تأخذ تطغى عليّ أفكار وصور وعواطف. وبعد الإبداع (وكذلك شأني بعد التذوّق) أحسّ الكون أكثر

تآلفاً معي منه في المعتاد. فأرجّح أنني كنت، في أثناء
الحالة الشعريّة، على تأخّر مع الكون، على مواجهةٍ للأزليّ
من الحقائق التي كنت أجهل.

قبل الإبداع سلطنة نغم وبعده أثر تأخّر مع الكون ؟
هل يعني هذا أنّ الشعر مادّة الموسيقى ؟ لربّما. وسلطنة
النغم قاعدة لا تُخطئ. والعلم يعلم أنّ الإتحاد بالكون لا
يتمّ إلّا بالتموّج. ونحن نعرف أنّ أوثق ما يرتبط بالنفس
أشياء موسيقيّة ومظهرها الطبيعيّ الغناء. وقد ثبت أنّه من
الرّملة إلى الكوكب، من أدقّ الخلايا إلى أبعد جنبات
الكون، إنّما يقوم ارتجاف دائم، تموجات دائمة. وباكراً،
منذ القرن الخامس عشر، قال العلامة ده كوزا : « ان
النفس لحن ».

أتكون، يا ترى، مادّة الشعر تموجاً ؟ أتكون موسيقى ؟
وبعد، لعلّي لا أبعد عن الحقيقة كثيراً إن قلت : الشعر
حالة من لاوعي فوق الوصف لا تُشرح، جوهرها أشبه
بموسيقى، بها يتحد الشاعر حميماً مع الأزليّ من حقائق
هذا الكون المهيّب.

* * *

الحالة الشعريّة، كيف أنقلها منّي إلى المتذوق ؟

قلت أنقل ولم أقل أعبر أو أترجم أو أصوّر أو أمثّل
أو أدني أو أعكس أو أنبئ أو أنشر، إذ الشيء لا يمكن
غيره أن يكونه.

من التّحديد أذكر بأمرين : الشعر من لاوعي، وجوهره
أشبه بموسيقى. نقل الشعر إذن يقتضي تعطيلاً الوعي
في القارئ وأن أخلق فيه جوهرأ أشبه بالموسيقى وأخلقه
على شاكلته بالذات.

أولاً : كيف أعطل الوعي ؟

أقول : غداً، لمحض ما أن يواجه القارئ قصيدتي،
سيكون قد هيأ لها وعيه، عاد بأجمعه وعياً بوعي : عقلاً،
تخيلاً، حساً. سيكون على تمام أهبة إذن لأن يأخذ من
الحالة الشعريّة ما يقع على السطح من قوى النفس،
لأن يأخذ منها مظهرها الأخط، نثرتها بالذات، لأن يحول
لاوعيها إلى وعي، لأن يخرجها عن طبيعتها، لأن يقتلها.
إذن فلا أعطل فيه الوعي. كيف ؟ بأن أشغل منه الوعي،
ظاهرة الفضوليّة فيه. الوعي يطلب أبداً أن ينشط، أن
يعي ؟ فلا أعطيه حقلاً يعمل فيه نشاطه، ولكن حقلاً مركباً

(ويقول البرانيون : صعباً) بحيث يجهد، ويجهد حتى يتعب، وأخيراً يكلّ.

هذا الحقل عرفه النظريون المحدثون باسم « الإيحاء ». أما بحثهم الإيحاء فلم يخلُ من سذاجة. قالوا مع ملرمة : الأشياء قِيلَتْ ألف مرّة : يكفي أن نومي إليها إيماء، نتمتع بعض الكلمات، ليروح السامع يكتشفها من ذاته ونكون لم نضيع عليه لذة الاكتشاف. وقالوا مع غير واحد : إن القارئ إذ يكتشف يحسّ أنه شارك الشاعر في خلق الحالة الشعرية، يحسّ أنه هو أيضاً مبدع.

على أن الإيحاء، حقلنا المركّب العجيب، ينفصح سرّه إن هو درس في مظهره « التعددية ».

« التعددية »، في الموسيقى مثلاً، (وهي ذروة أنواع الموسيقى) هي أن تضرب في الوقت الواحد أصواتاً مختلفة. فإذا الوعي، ولا صوت واحداً يرتاح إليه، أي يعيه، يحاول أن يقبض على الأصوات المتعددة مجتمعة، فيجهد نفسه، لكنّه (وهو الضعيف الضعيف ولسطحيته ذو خاصّة تتطلّب الواضح والمفرد) عبثاً يجهد، فإذا به يتعب ولا يلبث أن يقع دون المحجّة، وهكذا يترك الأصوات المتعددة

تخاطب اللاوعي، وهي التي إنما وُجدت له ولها وُجد.
ألجأ إلى الإيحاء؟ أو، بلغة الموسيقى، إلى
« التعددية »؟ أوليس إلى هنا مرّد أقوال برغسون: « غرض
الفن أن ينوّم القوى العاملة، أو بالأحرى الصامدة، من
شخصيتنا، ويذهب بنا هكذا إلى حالة انقياد تام... »؟

هو العمل السلبي لـ « التعددية ». أمّا عملها الإيجابي
فلعلّي أتبيّنه عندما أفاجئني أخلق جوهر الحالة الشعرية.

ثانياً: كيف أخلق في القارئ جوهر الحالة الشعرية
وأخلقه على شاكلته بالذات؟

الألفاظ، عناصر الشعر المادية، ليست علاماتٍ محضٍ
اصطلاحية. اللغة لم يوجد لها فرد ولا مجلس أفراد،
فصطلحها اصطلاحاً. اللغة بنت التفاهم البدائي. هذا كان
بين الناس، شأنه اليوم بين البكم غير الصم، أصواتاً، لأنّها
جوهر المعبر عنه. فإذا يكون طور الكلام تعود اللفظة
مجموعة أصوات أكثر تساوياً في الجوهر وشكل الجوهر
مع الشيء المقصود إظهاره.

هو سرّ تكوين اللغة لا أزيد. وهو المبدأ الذي ينبغي
أن يظلّ عليه الكلام.

ولكن إذا تكون الكتابة، وتغرق اللغة في الاصطلاح،
(وهو إنما يستدعي التدخل العقلي، الذاكرة على الأخص)
وتخرج الألفاظ عن هذا التساوي في الجوهر وشكل
الجوهر مع المقصود إظهاره، تعود مهمة الفن أن ينتقي
ويرتب بحيث يوجد تركيباً كلامياً، وقُل موسيقياً، فيه
من الأصوات، تمازجها أو التنادي، جَهيرها أو الخفية،
مقتضِبها أو المنبسط، إلى لعبٍ ولفٍّ، ممّا يؤلّف
صَيغاً صوتية تعيد بين الكلام والمقصود إظهاره رابطةً
فيزيولوجية سبق للتدخل العقلي أن فُصمها. وبقدْر ما يُوفّق
الفن إلى ذلك تكون درجة الخلوّص في الشعر.

تساوي الصيغ الكلامية والحالة الشعرية جوهرًا يقتضي
أن تكون الصيغ الكلامية من تموجات هي نفسها مكوّنة
الحالة الشعرية. والتساوي شكلَ جوهر يقضي أن تكون
الصيغ الكلامية من تموجات هي نفسها تكوّن الحالة الشعرية.
والتساوي شكلَ جوهر يقضي بأنّه إن كانت التموجات التي
تكوّن الحالة الشعرية على شكل لولبيّ مثلاً أو خط مستقيم
أو ما إليه وجب أن تكون كذلك التموجات التي تتألّف منها
الصيغ الكلامية.

يطيب لي أحياناً أن أتناول الأصل والترجمة لقصيدة

ذات ترجمة عبقرية. (أقول الترجمة غير ناس ما يزعمون من أن الشعر لا يترجم. وإنه كذلك إن كان المقصود أن تحصيل على مساواة في المعاني بين أصل و ترجمة. ولكن الشعر أكيداً يترجم إن كان المقصود مساواة الحالة الشعرية يُطلعها الأصل بالحالة نفسها تُطلعها الترجمة). وأختبر وقع الصيغتين على من يجهل لغتي الأصل والترجمة فالحظه يستشعر، دوماً على وجه التقريب، الحالة الواحدة : ففي اللغتين يسمع الحلق يعمل إن كانت الحالة الشعرية متمظهرة الجوهر بأصوات مختنقة، وفي اللغتين يتحسس الأبيات عصبية أو متطايرة إن كانت الحالة متجلية الجوهر بأنفاس مقتضبة أو وثابة. فأوقن أن أبيات الترجمة لم تتمكن من نقل الحالة الشعرية بالذات إلا بعد أن ساوت أبيات الأصل جوهرًا وشكلَ جوهر، وأبيات الترجمة يستحيل أن تكون قد نقلت حالة الشاعر لو لم تساوها جوهرًا وشكلَ جوهر. وبديهي أن شيئاً يساويه أحدُ شيئين متساويين هو مساوٍ ثانيهما.

وبعدُ فالقصيدة، أداة نقل الحالة الشعرية، أحدها هكذا :
 مأثورة كلامية توصلت بتجارب موصولة — وقل بَلَقِيَّات
 — إلى فِلْد، إلى أبيات، إلى مجموع إيحائي يعطل بتعددية

الأصوات وعي المتذوق ويتكوّن في لاوعيه بأكثر مما يمكن
من مساواة لحالة الشاعر جوهراً وشكل جوهراً.

* * *

هذا عن الشعر كفنّ، أي كواحد من مظاهر الجمال.
أمّا الشعر في أغراضه والتفصيل فيها فمسألة أخرى. ولربّما
أمكنّت إزاحة طرف من ستارها بالقول : إنّ الجمال الذي
يخلعه الشعر، سواءً على الشاعر أو على المتذوق، إنّما
قوامه هدوءٌ خالص لا تتلاطم فيه فكرٌ وصورٌ وعواطفٌ،
هدوءٌ يجعل النفس، ولا شيء يفجأها أو يعكّر صفاءها،
منطويةً على ذاتها، أعماقها على أعماقها، حتى لتغدو أكثر
تآلفاً مع حقائق الكون، بل تغدو وحقائق الكون شيئاً
واحداً، فإذا هي فوق هذا العالم بآلامه ونقائصه، لا تصطدم
عمياءً بأيّ نظام تجهل.

البحر المستم

- ربّ ربّ ، أما كان يمكن..؟
- قل : لو تنفلتون من الأوهام
التي نسجتكم، فتروا ان للجمال
منطقاً معصوماً.

نغمةٌ آذنتُ وصحوٌ أضاءَ
في محيًّا
هَيَّهَانَ من نَعْمَاءَ.

تترأى فيه الأمانِيُ
زرقاءَ،
وتَفْنَى
عَبْرَ الرُّؤَى
بيضاءَ.

نزهةٌ للعيون
تَغْوَى به
وَهْمًا
وتَنهَدُ دونه إعياءَ.

وتعرّى خدّانٍ عن شفقٍ رَحْبٍ بهيِّ السّنى، نَقِيّ التّاجي،

في مدى سَجْعَةِ اليمامِ
تتاليه المُغالي،
وفي مدى الابتهاج.

أَيُّ بوحٍ
من عاشقٍ
لم يرجّعه،
وَأَيَّ ارتعاشةٍ واختلاجٍ !

مِثْلُ وَخِي مُجَنّحٍ
مَرَّغَ الرِّيشَ
غَنُوجاً،
في ناظرين،
حَيّاً،

ساكباً فيهما من الليلة القمراءِ
أو تاركاً
من الريشِ
شيّاً.

لا رُكوناً إلى سكونٍ، ولا حُلماً بحُبٍّ، ولا انتهاكاً لِسِرٍّ،

غيرُ ظلٍّ
من لفتةٍ
حُلوةٍ الإفضاءِ
رَفَّتَ عليهما، بعضُ دهرٍ.

واستلانَ الضُّياءُ
ضحكةً تُغري،
غافياً، مِلثَّها، عليلَ الأمانِ،

شائعاً حوله، من الوهمِ،

ألوانٌ
خِفافٌ
يَغِينَ في ألوانِ.

سَفَحَ اللهُ، غَبَّ نشوته، قارورةَ الحُسنِ في صحاري البرِّيه !

فإذا في الرّبي
اعتراشُ الدوالي
ووراءَ الرمال
رَجَعُ الأغاني،

وإذا للحياة أُمْنِيَّةُ الحُبِّ،
وللأرض

مريمُ المَجدَلِيَّةُ.



رَأَتْ النُّورَ، عَهِدَ لَا يَتَعَبُ النُّورُ،
وَعَهِدَ الدُّنْيَا لَهُ، وَالْعَصْرُ،

وَتَلَوْتُ
فِي مَهْدِهَا،
فِكْرَةً بِيضَاءَ
مَخْضُوبَةٍ بِوَهْجٍ وَلَذَّةٍ،

تَمَلَّأُ الجَوَّ
مِنْ أَصَابِعِهَا العَشْرِ،
فَمَلَّهِيَ الضُّحَى
أَصَابِعُ عَشْرُ !

طفلةٌ واللمى يَهُمُّ بأنَّ يُعطاك
والقلبُ
فِلْدَةٌ إثرَ فِلْدَةٍ..

غَدُّها
كانَ قَبْلَها ،
لا انطوى خَصْرٌ
بأشهى
ولا تَلَأُ ثَغْرُ !

رأتِ المَجْدِلِيَّةُ الضَّوءَ
أَسِيانَ ،
فأَجْرَتَه
في الرُّبَى
أنهاراً ،

والمُروِجَ الفتیان،
ذَبَلَى كَهولاً،
فَجَنَّتْهَا أَعِزَّةٌ أزراراً.

قَطَفَتْ بُحَّةَ الحبيبِ
نَشِيداً،
وَاسْتَرَدَّتْ آهَاتِهَا
أَشعاراً.

فَإِذَا الحُبُّ،
ذِلَّةُ النَّاسِ فِي الظُّلْمَةِ،
يَنْدَى
فِي مَفْرِقِ الصُّبْحِ،
غَاراً.

هَدَمْتُ كُلَّ وَرْدَةٍ مُنْتَقَاةٍ
وَابْتَنَّتْ
عَرْشَهَا
عَلَى الْأَنْقَاضِ؛

تَخِذْتُهَا قَوَاعِدًا
وَتَخَطَّتْ،
لَيْسَ تَرْضَى بِمَا بِهِ الظَّنُّ رَاضٍ !

يَطْهَرُ الطَّرْفُ، إِنْ رَأَاهَا عَلَى نَيْرٍ عَهْرٍ مُخْضَبٍ بِيَاضٍ .



عرف الناسُ نشوةَ الحبِّ في نديانِ جسمٍ مُخضوضِر
اللذاتِ.

مرَّغوا في أريجِ الجبهةِ البيضاء،
واستوقفوا الهنيهةَ
بِكرًا،

واستلذّوا
نبضَ الأُسرةِ
وانهدّوا
هُيامي
على جنى الطيّباتِ،

عانقوا الحلمَ
إضحياناً
تعرّى
عن ربيعٍ مُوهٍ، وأُفقٍ أَمْرًا،

وتغنّوا
مع الجمال،
وهزّوا
لذّة الوصل في سرير الحياة.

من صبا المجدليّة اقتصفوا العود،
ومن رنّ كأسها، النّغمات !



خفقَ اسمٌ
في جوّ أُورَشَلِيمَ
خفّقةَ العطر في جِواء الرّبيع.

وتغنى الحادي بحسناؤه، حُلِمَ الأرض مُدَّت له، ففرّ،
يُداها.

سُجِّدَ دونها الأَعِزَّةُ من روما،
ومن رَحِبِ فتحها،
ومُناها.

دُميةُ
أُشرقَتْ
على سُرُرِ الرِّفْعَةِ،
بين العُبدان، بين الشُّموع.

سَعَفُ الغارِ دونها في انكسارٍ،
ومَنى التاجِ
مُطَرَق
في ركوعٍ.

قدّستها العروشُ
قدّسها الناسُ،
وداست على قلوب الجميع..



كان، في ذلك الزمان،
على تلٍّ صغيرٍ
مُخضوضٍ الجَنَبَاتِ،
مُبْدَعٌ
قالت الجديدُ
يَدَاهُ،

ينثرُ الياسمينَ
في الكلماتِ،
قام بين الأمواجِ،
من نظرَ الناسِ
ومن مِسمعِ الذُّرى الواجِمَاتِ.

يُفَعِّمُ الثَّبرَةَ التفَاتاً
إلى فوقِ،
ويُبقِي
على البقاءِ
صداهُ.

تمتّات
تقولُ آنا : يسوعُ،
هينمات
آنا تِضِجَ : اللهُ.



سمعتُ زهرةُ اللذائذِ أَنَّ الكونَ بالناشِقِ الأبيّ تمخضُ،

بفتى الطُّهر، يَنشُدُ الوردَ
صعباً،
طَيِّبَ الفُوحِ،
طَيِّبَ البُوحِ،
أبيضُ.

واستزادت، والعين تبسّمُ من هُزءٍ ودَلُّ القَوامِ في
إغراقِ،

وانثنت
جبهةً خجولاً،
ولحظاً
تائهاً في سرائر الآفاق.

أهْو همُّ الهموم
جاراً
على خدين،
حتى لفي الهدوء اصطدام،

أم جمالُ الوجود
جُمع في ثغر
وألوى،
فكلُّ حسنٍ حُطامٌ؟!

رَعَشَاتٌ حَرَّتْ أُسَارِيرَهَا الْبَيْضَ
فَهَاجَتْ فِي أَفْقِهَا الْآمَالَا،

وَامَّحَتْ
ثُمَّ آذَنْتْ بِمَعَادٍ،
فَكَأَنَّ مَزَّقَ الْخِيَالُ خِيَالًا.

.. أَيُّ جَانٍ،
قَالَتْ،
تَمْنَعُ مُزَوَّرًا عَنِ الرُّوضِ، يَوْمَ هَلَّ جَنَاهُ ؟

أَيُّ عَيْنٍ حَرَّى الشَّكَاةِ اسْتَطَابَتْ
هُدْبَ عَيْنٍ
جَفَّتْ بِهَا الْأَمْوَاهُ ؟

أَيُّ ثَغْرِ
حَرَّانَ
مَاتَ عَلَى ثَغْرِ
رَطِيبٍ مَا أَشْعَلَتْهُ الشِّفَاهُ ؟!

وَوَهَتْ زَهْرَةُ اللَّذَائِذِ فِي سِرِّ يَسُوعَ
تَقُولُ :
يَوْمَ أَرَاهُ..

عند شاطي الأرْدُنُّ،
بين الخَمِيلَاتِ،
تَلاقى
يسوعُ والمَجدليَّة.

أبصرتهُ
يُذرذِرُ الشَّعْرَ
فَجراً
ويَرُدُّ الأبرادَ
وَهَجَّ عَشِيَّةً.

تَنكِي رَحمةُ العُلَى، بين جفنيهِ، اتِّكاءُ السَّنى بِحِضنِ
البرِّيَّةِ،

ويلوح السَّلامُ

في شفّتيه

بسمةً

حلوةً

ونَبْرًا

بَلِيلًا.

يلتوي

نَقْلَةَ الطِّفَالِي

نَحِيلًا،

ينثني

مِشْيَةَ المَلُوكِ

جَلِيلًا.

الرَّيَّاحِينُ مِنْ يَدَيْهِ تَهَاوَتْ

وَاعْتَدَتْ

حَوْلَ خَطْوِهِ

إِكْلِيلًا،

سَرِبْلَتُهُ أَطْيَابُهَا، سَرِبْلَتُهُ مَسْحَبُ التُّورِ، سَرِبْلَتُهُ الْهَيُولَى.

وَرَأَاهَا،
يَهْدُمُ الْحُبُّ جَفْنِيهَا، وَيَعْتَلِّ مِنْ شَكَاةٍ لَمَاهَا،

يُخْضِلُ الْأَرْضَ
مُتَّكَأً قَدَمَيْهَا، وَيَنْدِي الذَّبُولَ
فِيءُ خُطَاهَا.

خَلَعَتْ طَرْفَهَا عَلَى الرَّوْضَةِ الرَّيَّا،
عَلِيلًا،
فَأَوْجَعَتْ
رَيَّاهَا.

لا عليها ولا لها
غيرُ سِترِ الغيب،
تَذْريه
ثمَّ تطوي،
يداها.

وأبانت
عَمَّا يُظَنُّ كلاماً،
فتأَنَّى السُّكونُ
والآنُ
تاها.

فَجَرَّت في الفضاءِ سُلْسِلَةُ الحُلَمِ، وأرختْ على الأديمِ
الصَّفاءَ،

مِنَ أُسَارِيرِهَا اكْتَسَتْ عَطَفَاتُ النَّهْرِ
زَهْوًا،
وَمَيْسَةً الْبَانِ
جَاهَا.

فَالْأَفَانِينَ فِي الضِّفَافِ
حِسَانُ
خَالَعَاتٍ عَلَى الْقُدُودِ الْهَنَاءِ.

سَفَحَتْ مِنْ هُدُوءٍ وَجَنَّتْهَا الصُّبُوحُ.
وَمِنْ غُمُقِ شَعْرِهَا
النَّعْمَاءُ،

واستثارت
من رَفَّ أَرْدَانَهَا.
جَوْأً
ومن غَنَجَ قَدَّهَا،
أَجَوَاءَ.

تَنْقُلُ الرَّجْلَ فِي التَّرَابِ
جَنَاحاً،
تَطَأُ الْأَرْضَ
كَالْجَنَاحِ،
فَضَاءَ.

قطعة في سرائر الغيب صِيغَتْ
عادت الأرضُ تحتويها
سَمَاءَ.



هَامَتِ الْآنَ مَرِيَمُ وَيَسُوعُ،
فِي ظِلَالِ الْأَفْنَانِ
وَالْأُورَادِ.

يَشْرَبَانِ الْمَسَاءَ
مِنْ جَعْدَةِ الْأُرْدُنِّ، مِنْ هَبَّةِ النَّسِيمِ النَّادِي.

فَتَّقَتْ
بَسْمَةً،
وَأَشْرَقَ
لَحْظًا،
وَالدُّجَى لَمْ يَفُضْ بَعْدُ وُجُوهَهُ،

وَتَهَادَتْ
إِلَيْهِ،
فَالْأَرْضُ
فِي الرَّعْشَةِ
تَلْقَى الْجَمَالَ
قُرْبَ الْأُلُوهَةِ

سَلَسَلَ البدرُ نورَهُ
مُخْمَلِيًّا
بين خُضرِ الخُمائلِ الحالماتِ،

وَتَقَضَّى الظلامُ،
إِلَّا هَزِيْعاً يَتَهَادَى كَوَاكِباً راقصاتِ،

هَيْنَمَاتُ النسيمِ، رَقْرَقَةُ الأضواءِ
مَسْفُوحَةٌ
على الكائناتِ.

في صَفَاءِ السَّمَاءِ والأَرْضِ
طَرْفُ
بَاسِطِ الجَفْنِ للرُّؤْيِ العُلَوِيَّةِ،

في رُجومِ السماء والأرض،
إرهافٌ

لنَجْوَى المسيح
والمَجْدَلِيَّةِ :

يا رَيْبَ الخيال،
يا أَفْقَ الفكرِ،
فَدَاكَ البَيَاضُ من حَرْمُونِ !

وَحَنَّتْ فوقَكَ الضُّلُوعُ العَذَارَى
وابتَسَامَ اللَّمَى
وَنُورُ العَيُونِ !

يا أَسَارِيرَ مُنِيَّةٍ عَزَّ لُقْيَاهَا،
فَأُطْلَعَتْهَا
نَدَى
وَسَنَاءَ

ضاحكتك الأنسام في هدأة الفجر
وبشك
روحها البيضاء !

يا اندفاع الأحلام
في بال عذراء
ويا بسمّة
على ثغر أمّ،

عانقتك الأفكار
في غفوة الصُّبح
وروثك بين لثم وضم ! «

باحثِ المجدلية الآن أم صلت ؟
وغابت،
مجنونة،
في الخيال ؟!

حدّثُ مُبدِعَ الجَمالِ، إلهَ الحبِّ،
بالحبِّ، طيِّباً،
والجمالِ !

ودّعتهُ
إلى التمتّع بالأيّام
قبل الخريفِ، قبل الزوالِ !

علّتهُ
بأن تُهزّهزهُ في الحِضْنِ،
أنا،
ومرّةً في الجفونِ،

إن تُرنم
يُعانق السرّ
في الصّوت،
ويشرب — إن تغف —
رجع السكون،

وإذا جاذبته حلماً يبدل الأرض أخرى
قالت :
« سبقتُ ظنوني ! »

صارحته بالحبّ،
والكون ساه
لا يعي
والزمان
لا يتوالى،

فإذا الرّدّ من يسوع
جفون
تسامي
وجبهة
تتعالى.

— لا ! حنانيك، لا تُقلّ : « لا »
ففي ذلّي جوعٌ إليك دُمِرَ حالا.

لا

وفي اللائِ منك ما يجعلُ الدهرَ
أراجيفَ،
والوجودَ
سؤالاً !

وارتمت زهرة اللذائذِ

هيمى

عند رجلى يسوع

حرى المالِ

تسألُ الحبَّ،

إنْ غراماً

وإنْ قُدساً،

وكفانٍ

مدّتا لنوالٍ،

تلثمُ الشربَ،

توبةً،

ويسوعُ

يتوارى

في جُهمَةِ الأدغالِ.

لَمَلَمْتُ
لِحْظَهَا
فَلَمْ تَلْقَ إِلَّا
نَثْرَ آمَالِهَا عَلَى الْآمَالِ،

وَأَمَّحْتُ،
ذِلَّةَ الْحَيَاءِ،
فَلَمْ تَنْعَمَ
بِمَرَّاهِ
وَالْدُمُوعُ لَأَلِي !



وَدُمُوعُ الْمَسِيحِ
لَمْ تَسْقِ مِنْ خَدَّيْهِ
حَتَّى غَدَتِ
جَنَاحَ مَلَاكٍ،

هَامَ فِي الْأَرْضِ

إِثْرَ مَرِيَمَ،

يَحْنُو

مِنْ أَضَالِيلِهَا

عَلَى أَشْوَاكِ؛

فَإِذَا يَلْتَقِي بِهَا،

ذَاتَ يَوْمٍ،

تَسْحَبُ الذُّلَّ

وَسَطَ غُلْفِ الْجِبَاهِ،

وَشَفَاءُ تَصِيحٍ :

« وَبِهَا ! أَلَا أَرْجُمُهَا ، »

وَحَكْمَ يَهُمَّ

عَبْرَ الشُّفَاهِ،

فَرْتَمِي
ذَلِكَ الْجَنَاحُ
عَلَيْهَا
فَيَرَاهَا الْإِلَهُ
ظِلَّ إِلَهٍ !

قَدْرُ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٤٤

الطبعة الرابعة ١٩٩١

قَدْرُوس

مأساة شعريّة من ثلاث فصول

« سوف نبقي، يشاء أم لا يشاء الغير
فاصمد، لبنان، ما بك وهنُ
سوف نبقي، لا بد في الأرض من حق
وما من حق ولم نبق نحن ».

قدّموس

لما اختطف زوش، كبير الآلهة،
أورُب، بنت ملك صيدون، لحق
بهما قدّموس إلى بلاد الأغارقة
يسترده أخته.

وفي البيوسى قتل تينياً كان قد
قتل باثنين من رجاله، وبأمر إلهة
الحكمة بذر أضراره في الأرض،
فأنبتت رجالاً شاكي السلاح اقتتلوا
إلا خمسة أصبحوا فيما بعد نبلاء
ثيباء، أولى مدن مئة وإحدى سوف
بينها قدّموس.

وأورُب هي التي أعطت الغرب
اسمها كما أعطاه قدّموس حروف
الهجاء، وهكذا كانا الواحدة رسالة
الحُب والآخر رسالة المعرفة.

أسطورة إغريقية

الأشخاص

قَدَمُوس

ابن الملك أغنار

أورُب

أخت قدموس وعروسة زوش

مِري

مرضع قدموس وأورب

الأعمى

عراف إغريقي

جوقات

من إلهات، وبحارة صيادنة، ومقاتلة اغارقة.

صحرا موحش الكهوف من ساحل البيوتى، في بلاد الإغريق،

منتصف الألف الثاني ق.م.

الفصل الأول

المستحضر الأول

أورُب، مری

أورب

حَدُّكَ الحَدِّ ا يا سماءُ، تَجْهَمُ

تُعَلِّسُن، فارأفسي بالجراح !

لا تُحَرِّي، رُحْمَاكَ، هُدْنَةَ ليلٍ

لا يحطُّ التفاتُ في صباحٍ .

تُجهش باكية

مری

بضلوعي بكيت، أورُبُ فأصْحِي .

أورب

آه! لو عِفْتِنِي لِوَحْدِي وآهي!

مرى

لا !

أورب

غضبي سلطان

تقولين ؟!

مرى

معتذرة

أنت بنت أغنار،

مليكي ؛ وزوج زوش، إلهي.

واذا أدعي، فدعوى لبنان

رضعته من مهجتي شفتاك.

أورب

متأثرة معتذرة

عفو كفيك، يا مري، أنت، في العربة،

وجه من عهد لبنان، حاك.

أنا، يوم اعتلقت زوش، تخلّيت

عن الكرّ فوق شطآن صور،

في عذارى الأتراب، يخضّل خصري،

دون شتى الخصور، بالبرفير ؛

وتخليث — أين ضمة أمي ! —
 عن هوى ما سواه لمع سراب ؛
 عن أبي، سيد الحواضر ؛ عن زند
 شقيقي، قدموس، زين الشباب ؛
 عن قرى من زمرد عالقات
 في جوار الغمام، زرق الضياء،
 يتخطين مسرح الشمس، يركزن
 بلادي على حدود السماء.
 كل ما كان عفته ! كل ما كان !
 وآثرت ضمة من حبيب،
 واذكاراً كالطلل يُعش نفس،
 كلما طوقت يدك شحوبي.

تفيء الى صدر مري

أنتِ حق أردته يحتوي عطر
 بلادي جميعه.

مري

أنا أدري،

وتتذكر يوم اختطفك وإياها من لبنان

ملء عيني عنك لوحة حب،
 بلبل جيد على البال كرا :
 مركب مفلت من البحر، تياه،
 يشق الشريين والسنديانا،
 تخذ الشكل عن فم الورد في البرعم،
 والدفق عن صبا لبنان،
 وتحلى بالفل، والورد والآس،
 يغني للريح، يغوي ويومي،
 في هويناه مسح رب على الأرض
 وفي الخيزلي انقراط نجوم .
 ما لها تلة تقول لأخرى :
 « أنا منه في موعد المشتاق ،
 حلمت ضمتي به، منذ كان الحب
 في ثرتي، وفي أعراقي . »
 وهو ساه، كأنما الصخر صخر
 لا دعت هضبة، ولا اهتز قاع،
 جد مجذافه على سندس السفح،
 وشال الصاري، وطاع الشراع .
 وتقولين : « ها تراب بلادي
 هس للأخشب الموات، ورقا ؛

إبعثوني غداً رسالةً حُبِّ
 من بلادي تفجّر الأرض رِفقا. «
 فإذا الطيرُ في الرُبيّ تالت
 وتغنّت، والغصنُ ماذ وشوق ؛
 وسجا زورقُ الإله، ومُدّت
 منه كَفّانِ تقطِفانكِ زُئبق.
 كم تشائي إلّاي خِدْنَةً عُرْسٍ،
 لا ولم تأنسي إلى غيرِ بؤسي.
 أنا لم أنس.

أورب
 أيُّ أمٍّ حنونٍ
 أنتِ لي! فانتحي معي ليلَ نفسي.

مرى

أوتبكين ؟

أورب
 والنزال، مرى ؟ والسيف
 أني يُصِيبُ وجيعاً، يُصِبنِي ؟
 يا، هُويناةُ ! كان حُسناً فأذوي
 وتملّي البكاءَ والهمّ، حُسني

ضِيقْتُ ! لولا مُزَجِّجٌ فوق جفني
لم يُجِيشْ أخِي على الإغريق ؛
لم أكن فيهم عروسة زوش ؛
كنت حرباً !

مرى

غَضَبِي

بل جُدوة من شروق :
جاءَ قَدموسُ بالكتابة، بالعلم
إليهم، إلى الأوتار العصور ؛
وغداً يعرفون أنا على السفن،
حملنا الهدى إلى المعمور.
ما تقولين لو تُسمي بلاد الغرب
أورب ؟
أورب

مستغربة ما سوف يغدو واقعاً

لو تُسمي بأسمي !

مرى

وَأثقة كأنما يُمرُّ أمامها لوحة التاريخ جميعاً
أعجيب ؟! ونحن أوّل من حطَّ
بأرض كَفَّا، وطرفاً بنجم !

وبلقنة الى المغرب خاشعة، تسميه بأسم أورب
 كن، يها الصُّقْع، بأسم أورب، أرض اليمن
 أرض النُّهى، وأرض الجمال.
 باركتك اليد الأهلّت على القفر
 عطاءً، فالعطل من بعد حال.
 السَّحَتْ، أول الزمان، على ثربة
 أهلي بالغسيث المحراث،
 آله الخير يا لها تتحدى
 دُنُيوات ضنّت برزق بُغاث.
 علّمت، ويحها، أن الفتح كلّ الفتح
 بالعمق، لا بعرض وطول،
 فإذا تطرق السواعد باب الأرض،
 تغوى بأنهر وسهول.
 والأذلت — يا ثبلها، يد طلاع
 ويا بُغدها بصائر غمض! —
 عُنفوان المجهول بالزورق الأول
 يلقي أرضاً على حضن أرض.
 والأسلت روح الخلوّص من المحسوس
 تحبو العقل الوليد شمولاً،

غُرْبَةٌ فِي الْعِلَاءِ سَلَهَا : هَلِ الْإِنْسَانُ
بَاقٍ يَغَالِبُ الْمُسْتَحْيَا ؟
فَضْلَةٌ عَنْ خُوانِهَا الْأَبْجَدِيَّاتُ ،
وَمَا بَعْدَ مُسْتَقِيمٍ وَدَائِرٍ ،
وَتَدَاعٍ شَجٍ كَأَنَّ قُبَّةً مَادَتْ
وَزَهْرٌ مَفْتَحٌ فِي الضَّمَائِرِ !

أُورِبُ
هَجَّجْتَنِي ، يَا مِرَى ، فَخَذَّرْتَ نَفْسًا
حُمَلْتُ ، لَوْ كَرِيتَ ، هَمُّ اللَّيَالِي
فَكَّرِي ، فَكَّرِي بِقَدْمَوْسٍ فِي إِثْرِي ،
مُشِيرًا خَفِظَةَ الْأَبْطَالِ ،
يَتَحَدَّى ، فِي عُقْرِ دَارِهِمْ ، الْإِغْرِيقُ
يَأْبِي إِلَّا مَرْدِي عَنَوَهُ ،
يَزْرَعُ الرَّعْبَ فِي الْيُوسَى ، فَيَلُو
بَلْوَةً مُوْطِنِي الْجَدِيدَ فَبَلْوَهُ ،
ضَجَّ مِنْهُ الْإِغْرِيقُ ، ضَجَّ أُولُو الْأُولَمْبِ ،
حَقْدًا وَاسْتَصْرَخُوا الثَّنِينَا ،
يُوغِرُ الْبَحْرَ ، فَالْأَوَاذِيُّ فِي الْبَحْرِ
جِبَالٌ تَكْبُ زَوْعًا وَهُونًا ،

مَزَقَتْ مِنْ سَفِينٍ قَدَمُوسَ، مِنْ أَبْطَالِهِ
 مَطْمَعاً، وَذَلَّتْ عِنْدَهُ،
 فَإِذَا زَنَدَهُ أَشَدَّ وَأَمْضَى،
 يَوْمَ يَلْقَى صَدْرًا لِصَدْرِ نِدَّهِ.
 لَا يُرَى الْفَجْرُ أَوْ يَخْرُ قَتِيلًا
 وَاحِدٌ مِنْهُمَا.

مرى

مستدرجة

وَمَا التَّيْنُ !
 أَفْصَحِي، وَالتِّي وَقْتُكَ بَعِينِهَا
 الْأَذَى، فِيمَ سِرُّهُ مَكْنُونُ ؟
 مَرَّةً، شَتَّ أَنْ تَبُوحِي، فغاضت
 شَفَةً مِنْكَ خَلْفَ تَصْخَابِ آه !
 إِلَهًا تُرَاهُ ؟ أَمْ هُوَ وَحْشُ ؟
 أَمْ هُوَ الْغَيْبُ أَثْقَلْتَهُ الدَّوَاهِي ؟ !

أورب

منتهية

أتراني أدري ؟

مرى
وما قال زوش ؟

أورب

مسترسلة كأنما هي تهذي

قال عنه : « أُمُرُّ من إنسان،
مغلَّق، إن يَبِينُ فأظفارَ لَيْثٍ
وجناحي نَسْرِ على أفعوان،
وحشٌ وحشٍ الوجود، سِرُّ الغباوات
إذا قُدِّرَتْ لَهْنُ السنين،
قَوْلٌ من قال : « إِنَّمَا الْحَقُّ لِلْقُوَّةِ »،
هل كان غَيْرُهُ التَّيْنُ !
ينفث النار من حديد لسان،
ويُفْتَتِ الصخر الأصم بنايه،
إن يُنْقَضَ جناحه يُتَنِرَ الورد،
ويسود زنبق في شبابه ؛
أو يُدِرُّ طرفه يَصُبُّ هجيراً .
في عليل الصبا ويجترُّ نارا ؛
بات أعمى عن الخليفة يلتدُّ،
إن التَّدُّ جيفةٌ ودَمَارا .
ذاك قِرْنُ القدموش عند بزوغ الفجر .

كَأَنَّمَا تَوْقِظُ أَوْرُبَ

أَوْرُبُ، مَا لَصَوْتِكَ هَذَا ؟
 فِيمَ تَبْكِينَ ؟ فِيمَ تَخْشَيْنِ تَيْنِ الْيُوسَى
 يَلْقَى الْغَرِيمَ الْأَشَدَّ ؟
 أَنَا أَدْرِ الْمَلَا بَغْضَبِ قَدَمُوسَ،
 وَجَسَمٍ مِنْ صَخَرِ لَبْنَانِ قَدَّهْ،
 طَالَ مَا اسْتَشْرَفْتَهُ، فِي الْأَرْزِ، عَيْنِي،
 يَافِعًا تَفْجُرُ الْفَتَوَّةَ زَلَّهْ.
 أَجْفَلَ اللَّيْثُ مِنْهُ، فَانْتَهَرَ اللَّيْثُ
 شَجَاعًا، وَرَدَّهْ مُسْتَذَلًّا،
 ضَرْبَةً مِنْهُ لَا تَخِيبُ، فَإِنْ يَنْقُضُ
 يَيْطُشُ، وَإِنْ يَشَأْ يَتَسَلَّا.
 صَدْرُهُ، عَارِيًّا، أَحْنَّ إِلَى الْكَرِّ،
 وَكَفَّاهُ، غُزْلَيْسِنَ، أَمْرُ.
 يَا لَهُ، حِينَ يَطْرَحُ الْخَنْجَرَ الْجَهْمَ،
 وَيَجْرِي، فَالْجَوَّ أَغْبَرُ، حَرُّ،
 يَضْرِبُ اللَّيْثَ بِالْجُمَاعِ فَيَسْخِي
 ضَرْبَ شَبْعَانَ مِنْ لِبَا ثُدِي أُمَّةَ،

فإذا صَمَّه استعَفَّ وإلا
 أعمل الزَّندَ يحتويه بضمِّه،
 سلَّه من إهابه، ورمى الأرضَ
 بجُثمانه يحُرُّ ندوبَه،
 وتلوى عليه يمزق شِدْقِه،
 فينعى الى السَّباع نيوبَه !
 يا احتضارَ الأسود ! يا طربَّ السفح
 لرؤيا تهوي به وتشيلُ !
 راح قدموسُ يُنزل الرعبَ في الآجام،
 فالأرز هازج، والنخيلُ ؛
 وتخافينَ أنتِ أنْ يظفرَ الثَّنينُ ؟

أورب

بجرح عميق

لو تدركينها — أسراراً !

قَدْرٌ ...

مرى

بِمُ تذرَّعتُ بنتُ صيدون ؟

أورب

بما يقدرُ الأمورَ الكبارا،

بَتُّ فِي أُمَّةٍ تَوَلَّاهُمْ كُثْرًا
 وَيُودِي بِهِمْ بِالْعَرْشِ وَاحِدًا،
 الْمُجَلِّي عَلَيْهِمُ، ذَلِكَ الْأَعْمَى،
 وَلِيُّ الْمَصِيرِ، رَبُّ الْجَلَامِذِ.
 قَدَرٌ إِنْ يَشَاءُ يَغِيْضُ ذُرَى الْأَوْلَمِبِ،
 أَوْ يَضْرِبُ الْحَضِيضَ بِزَوْشَا.
 شَاءَ أَنْ يَعلِقَ الْإِلَهَ ابْنَةَ الْأَرْضِيْنَ :
 سَهْمٌ إِلَى السَّمَاوَاتِ رِيْشًا،
 أَوْجَعُ الْخَالِدَاتِ فَاهْتَجْنَ مِنِّي،
 غَيْرَةَ الْحُسْنِ لَيْسَ بِالْمَعْبُودِ،
 غَضِبْتَ تَدْفَعُ التَّحْدِيَّ هَيْرًا،
 زَوْجُ زَوْشٍ، بُوْعْدَهَا وَالْوَعِيدِ.
 خَافَ زَوْشٌ عَلَيَّ شَرًّا، فَخَلَّى
 عِنْدَ بَابِي ذِيَّالِكَ التَّيْنَا،
 قَالَ : « مِنْ صُلْبِهِنَّ يَحْمِيكَ وَحْشٌ.
 فَاطْمَئِنِّي، مَا لَمْ يُهَنْ، أَوْ فَهَوْنَا ».

مری

بَهْلَعُ

هو إن مات ... ؟

أورب

مُتُّ.

مرى

مشيخة عن هذه الخاطرة

لا قلت !

أورب

والآن،

أجيبي قدرتها الأقدارا ؟

مرى

لا وأبقى ابنة لصيدون ؛ هَيَّيْ
أطلعيه، صيدون، شهماً نهارة،
هاتفاً عن يدك : « أنا، أولي السعي،
أبيناه عاجزاً يتحكّم،
زورثه خرافة، أفرضي
أن تروح الدنى رهائن أبكم ؟ ! »
كل شيء من تلكم اليد.

أورب

حقاً،

يا مری ؟ يا مری، ادفعي الموت عني،

وادفعي عن أخي.

مری

فديتك، ماذا ؟

نقصيد الموت في خطي المظمن،

ونقولن : « قدر القدر الأعمى ؟ »

أعزُّ يُشرى بلا أثمان ؟

أفتراش زندي إله وذكر

في كتاب العلى — وبال هاني !

أورب

مشيخة عن التفكير بالمجد، منصرفة إلى أشجانها

أي عبء حملتُ يثقل عيني،

ويطوي نفسي على الجرح طيًا !

خلتني نعمة تفتت في الكون،

فيغلو صدراً لها وحنياً،

أسكرته لبعض صبح، ولكن

فاجأ الصبح مثل ليل غاضب !

فكان الوجود كهف مخوف

وهي في قعره استغاثة هارب !

في غدٍ ملتقى شقيقي وحامي :
 بلادي هنا وهنا شبابي !
 وأنا، في توقع الخطب، غصُّ
 من سراج، وحفنة من ضباب.
 زهرة لم يطلها الطلّ حتّى
 قهقهت تنعب الرياح وتصخب،
 جيّدها كان فوق يلعب في الشمس
 فعفره، أيّها التربّ، والعب !

بتشاؤم

ما لطيف الشحوب يسحب في الأرض
 ويرخي الضنى على الأرجاء !
 غمّ أسّي، أيها الغروب، فها نجمك
 في أفقه محابٍ مُراءٍ.

مرى

بنتٌ صيدون، والفؤادُ أليف الوهن ؟!

أورب

مَن ذا أرى، مرى ! العراف !

مرى

يا لأعمى مُرجّمٍ أبداً بالشرّ.

أورب
هل خفتِه ؟

مرى
أنا ؟ لا أخافُ.

أورب
متعلقة بخيط من الأمل واهـ
ما تقولين لو نطارحه الأمر،
وظنني به رسول إله ؟

مرى

ترهات !
وتهم بالذهاب

أورب
مهلاً، وإن يشِ قدموس،
فلا حرب، بعد ...

مرى

حقاً ؟ ... تباهي
وتقولين : « قدموس أقسم ما برّ
بعهد ؛ يرمونه ليس يرمي »،

وتقومي وتفعدي لعظيم
صدّ صيدون مرّة عن عزم !

المستحدر الثاني

أوربّ، الاعمي

الاعمى

دون مرمى يدي، على الساحل التّياه،
وجه جَهْم الأسارير، داج،
مُترع بالآسى، يَهْوَم فيه
جوعُ دنيا تنشق من أمواج،
فيم عيناه تمرحان على الأفق،
وتستطلعان نُخْماً نخْماً ؟
ويدّ في مجاهل الجوّ تمتدّ
تباهي نجماً، وتقطّف نجماً ؟
ما شميمي حبّ الغريب على الأمس
المدمى، وموكبُ الغد صاعد ؟
شبحُ خانقٍ وآخر مذعور،
غنى بائدٍ على قبرٍ بائد.

في البيوسى الحرّى، على حرم الإغريق،
أجلافُ أجنبٍ تترأى ؛
أين نأرُ الأولمب تنهال لا تُبقي،
وتمحو الحواضرُ الغناء ؟

أورب
واجفة، وقد أوجست منه تغضّباً على الصيادنة
بشراً كنتِ ام إلهاً، ترفق
بقايا نفسٍ غريبةٍ دار،
زهرة ملّت الجمال، وراحت
تنتهي في قوامها المنهار،
صارحتها حقيقةً حجرٌ ما الجرح،
ما اليأس، ما الحمام الحبيب ؟
لصباحٍ قلتُ، فلما وعث قولاً
وطارت إليه، كان الغروب !

الأعمى

أُحْتُ قدموس ؟

أورب

مَن سواها لهم ؟

الأعمى

لا تخافي : قري على الأخ بالا.
موعدي بالتقاءه الآن.

أورب

ضارعة إليه أن يكون رفيقاً في إقناع قدموس بالعودة الى صيدون
جود

من دموعي، يا راحم، الأقوالا !
دس في الصوت نكهة العسل الحلو،
وقل رنة القناة الغضوب،
قسوة في رضى المحيا، ولينا
في التحدي، شأن الحبيب الحبيب.
وتجنب جو القلي وحراب الهزء،
وأضرب على الأحس الحنون،
أخذه من قلبه العطوف على الضعف،
وأخذه من كبره الصيدوني !

الاعمى

أزف الموعد، أرقبي بك، أروب.

أورب

تلفت وأنظر !

الأعمى

شاعراً بعظم القادم من قولها له وهو أعمى : تلفت
أجل.

أورب

قدموس !

الأعمى

أهربى، ويك !

أورب

كأنما تنسلخ عن رؤية قدموس انسلخاً

ما لي اشتقتُهُ، واشتقت

دنيا في بُردتينِ تميسُ !

الأعمى

أسرعي !

تخرج أورب

يا خطي سدى حثها اليأس،

فأبقت في صفحة الرمل وسُما،

زبدُ البحر واقفٌ منه بالمرصاد،

والدهر منجلٌ ليس يعمى.

قدّر فوقنا !

المسحدر الثالث

الاعمى، قدموس

قدموس

راداً على « قدر فوقنا »

مقالة جُبِنَ !

شأ تزلزل دنيا، وشأ تبين دنيا.

الاعمى

متصنعاً استضعاف قدموس

لا تُجبر، قدموس، لاح لك النجم،

تهيب لا تستخف الجنيا.

تحداه جيلنا ؟ جيلنا عاتٍ،

وكالوحش، لو تذكرت، ضار.

قدموس

أنا من أمتي رسالة نور

تركك الوحش غير ذي أظفار.

الاعمى

حد من حدة، وصيدون أنتم،

ما تمرستم بقرع الأسنة.

قدموس

صادقٌ أنتَ. ليست الحرب في صيدون
قصداً مقصداً أو جِنَّة،
غير أنا اذا نُضام نجيء الموت.

الأعمى

عائذ ...

قدموس

ما عزَّ غيرُ المُعانَد

الأعمى

تستخف الإغريق، لا بأسك البأسُ
ولا سيفك الفِرْنْدُ الحاصدُ،
صولة الغرب ...

قدموس

خلّ، ما صولة الغرب ؟

الأعمى

جراح وكبرياء جراح ؟

قدموس

ما تكبرتُ : مَشْرِقُ الأرض ساحي،
يوم أُعطي، ومغرب الأرض ساحي

الأعمى
ذَلْ أَمْساً وحشُ البيوسى رفاقاً لك.

قدموس
أَمْساً. وارتدّ عني كليلاً؛
ما على الشمس، ما على عرشها الثبت،
إذا الأنجم انفرطن فُلولا؟
الأعمى

متصناً الشفقة
أنت في غربة، فرقاً بصحب
شُرْد، دون موطن في الغداة.

قدموس
نحن صيدونيون، موطننا الأرض،
ونأبى أقلّ ساح الحياة.

الأعمى
البيوسى قفر من الرمل جذب،
لا نبات في صخرها، لا مدائن.

قدموس
نحن غير الغزاة، نزل قفراً
فنخليه أنهراً وجنائن،

نزرع المُنْدَن، نزرع الفكر في الأرض،
ونمضي في الفاتحين مثلاً ؛
وغداً تعرف الحضارة في صيدون
أمّا، فتنحني إجلالاً !
الأعمى

نافذ الصبر
أبدأ لا تنون قرصان بحر !
قدموس

بأناة وثقة
تهمة تستخف بالشمس شانا،
حبذا، والضياء وقف على القرصان،
لو عادت الدنى قرصانا !
الأعمى

مسترسلا في الإهانة
مهل قدموس، قفرة في البيوسى
فوق صيدون رفعة والحواضر،
فوق ما تدعون من قُبب شَمِ
وشهب، ظواهر بظواهر ؛
إتّيد.

نحن للظواهر ؟ نحن الكاتبو
صفحة الحقيقة شعرا.
سُفُنَا الألف ما يُني هية الأعصر،
تفري المجهول بحرأ فبحرا،
عمرت جزركم عمائر غناء،
وفضت غنى ثراكم مناجم،
في كريت النحاس، في قبرص الصبغ،
وفي رودس القلاع الجوائم.
واشرأبت الى جزيرة تاسو
تملاه تبرها إبريزا،
قل ! من الضاربون عبر الأشبون"
يُقلّون في البحار الكنوزا،
يقحمون البسفور، حيث الصخور السبليات"
جُوع الفسور، فُجّع،

(١) دردنيل الأقدمين.

(٢) إسم لصخور مخيفة كان الأقدمون يزعمون أنها تنطبق على الذي يتوغل في البوسفور.

مطبقاتٌ على المغامر، يسحقن،
فَعِزُّ يُطْوَى وَيُنْدَفْ مَطْمَعٌ ؛
بُسْلٌ يمرحون في بُنْطٍ أكسين^(١)،
على رحمة الرياح النواهم،
لا يشدّون قبل عجرفة القوقاز
سفنًا، ولا يَهْوَنَ عزائمهم.
قل ! مَنْ النازلون قيثرةً بعدُ،
وإيطاليا، وجزراً، وجزراً،
يوقظون الدنيا على ضربة المِعْوَلِ
مستعمراً، فتنهض سكرى،
سفنهم في الجنوب تهمل على النيل
اختراعاً، وفكرة، وصناعة،
فاذا الطرف جاب منفيساً مصر،
خِلَتْ لبنان مستقلاً شراعه ؟
قل ! مَنْ الفاتحون إفريقيا بكرةً
يشيدون قمبةً في المغارب،
درةً البحر، قيل تصميمٌ فتح
باسم قرطاجةٍ على الكون ضاربٌ !؟

(١) البحر الأسود.

الأعمى

فاحر قدموس بفتح صيدون للبحر المتوسط، وقد اتمته في منتصف
الألف الثاني، أي في عصر قدموس ؛ ويتكلم الأعمى، لغاية في النفس،
وهو عرّاف، على فتح صور الذي سيحصل بعد ذلك العصر.

خَلَّ، قدموس، خَلَّ ؛ ما أَمَسَ إِلَّا
ومضُ برق من ضجّة الغد نَزُرُ :
ستحرون، بعدُ، جمجمة الأرض،
فيرقى على يدين الفكر.
كلُّ صرحٍ مُمرِّدٍ في ربي صيدون،
رملٌ في شطِّ صور طريحُ.
تتركون البحار خلف هواكم
لا تكلّون أو، يكلُّ الطموحُ.
آخرُ الأبيض الرحيب مَقِيلُ السفنِ
من نزهة لكم قمرَاءُ،
لا البليار شافياتٌ غليلاً،
لا ولا غاليا الجميلة داءُ.
صفحة الأرض حدّها الهرقليّات" ،
وتأبونه على الأرض حدّا،

(١) كان الأقدمون، قبل الصوريّين، يعتقدون أن الأرض تنتهي عند أعمدة
هرقول، جبل طارق اليوم.

فتفضّون في المحيط، بعيداً،
دنيواتٍ كأنّما الكونُ مُدا !
تحمون الإبيريا، والقسيتيريد^(١)
والجزر، عبْرَ بحر الشمال،
وتغنّون، حول إفريقيا، ملحمةً
من حقيقةٍ وخيال.
عدنُ أرضكم، وحرّانُ، والهند
قواديمُ سفنكم، والصواري ؛
وتقولون بعدُ: « صيدونيا الأمّ،
وصيدونيا وراء البحار. »
منكم الفارسُ الرّضى يتحدّى
أمةً تسترقُّ بَعْدُ العوالم،
تزحف القارتان خلف جبال الألب،
في ركبه، إذا سلّ صارم،
رومةٌ دميةٌ له، وربى إيطاليا
السخضر ملعبٌ لحصانته،
يكتب الفتح في مقدّمة الفتح،
ويُقي للدهرِ فضلةً شائنة.

(١) جنوبي غربي إنكلترا.

سِفْرُ حربِ ضاحٍ وقولُهُ حقٌ :
« لِسِنَانٍ تَلْمِذِ الْقَوَادِ،
كُلُّ يَوْمٍ مُحَجَّلٍ، بَعْدَ هَنِيئِ بَعْلٍ،
وَمُضٌّ مِنْ سِيفِهِ جَوَادُ. »
وكأنَّما يختصر المجد يقذف به بوجه قدموس ليخلص إلى النهاية
المروعة

هو، يا ابنَ الصيدونيا، حظُّكم يوماً،
تهزّون صفحةَ الأرض هزّاً !
وتُقلِّونها، إلى الشمس، في مركب
أرزي يهدي إلى الشمس أرزاً.
تقحمون المجهول من ساحة الفكر،
وتلهون بالخفايا الأحاجي،
كلُّ شيء منكم. وما أنتم يوماً ؟
لأنتم ذكرى سنّي في الدياجي !..

مشدّداً على هول النهاية بعد ذلك العزّ
ما لِعيني ترى لكم قبةً شهباء،
مخنوقةً بخيط مُعارٍ،
أجفّلت دونها الجبال، ويكفيها،
لتنهدّ، لفتة الأقدار.

إشف، قدموس، من طموحك.

قدموس

ما قلت ؟

وأختي ؟ وموعدي بالجزال ؟

الاعمى

دون أمنيَّتْك هولٌ.

قدموس

بعناد

وإذلالٌ

شراعي، أمساء، ورغمٌ رجالي ؟

الاعمى

المقاديرُ أو طموحك، يا قدموس،

قدموس

بثقة

لا شيء في طريق الطموح .

قلت أنا سنقحمُ البحرَ والبرَّ،

نجرّ الفتوحَ تلوَ الفتوحِ،

ومن الموطن الصغير، نرود الأرض،
 نذري، في كلّ شطّ، قرانا،
 نتحدّى الدنيا : شعوباً وأمصاراً،
 ونبني — أنى نشأ — لبنانا ؛
 وترجّي مني، أنا، الجبنة الأولى ؟
 ترجّي مني، أنا، الانهزاما ؟
 ما يقول الغدّ المحجّل عن قدموس،
 يومَ الدنيا لنا، أعلاما ؟
 يومَ تجني صيدونيا الزرقة الرحبة :
 مجدداً، مهابةً وحضارة،
 ويرى الفتح فتحه كلّ قبر،
 فوق لبنان، والبحار بحارة !

البحارة الصيادنة

من الداخل

غربي، يا بحار،
 شرداً بالأمل الغضّ.
 ههنا، في آخر الأرض،
 كرمة لي، ودار !

قدموس

هُمُ رجالي، وبعضُ عزم وراء النحر.

الأعمى

كأنما يستنزل اللعنة

لا طِبْتُ، سيفٌ صيدون، بالا !

مهتداً منذراً

يطلع الفجرُ في غدٍ بومةً تنعق !

يخرج

قدموس

بومٌ ؟ .. يا ريحُ هُدِّي الجبالا ..

البحارة الصيادنة

من الداخل

طبعٌ مركبي،

يقحم الغلابة الأمواج

ينزع التبر، يسُلّ العاج

من دم المغرب !

بالنأ، والشرر،

هذينا، والفتة العليا،

نحن جئنا بهما الدنيا،
فوق جذعِي شجرٌ !

سِتار

الفصل الثاني

السَّحَدُ الْاَوَّلُ أورب، الأعمى

الأعمى

مصطنعاً النصيحة

أَقْصِرِي فِي النَّحِيبِ، لَمْ يَبْقَ إِلَّا
أَنْ تَرِيهِ

أروب

باستغراب وهول

أنا ١٩

الأعمى

نصحتُ وجيعاً.

وَإِذَا السَّهْمُ كَانَ آخِرَ سَهْمٍ ...

أورب

مقرّعة

كان، يا قلب، مرأةً ودموعاً.

الأعمى
شئت طعناً على الرجولة.

أورب

أنى

لي، إذا شئت، أن أسلّ وأضرب،
وأنا الظفر قلموه، وقالوا :
« رُدّ عن مشرق، وقاتل لمغرب ! »

الأعمى

لو رشدت اهتزت للرأي، أورب.

أورب

وما الرأي؟.. أن أحطّم حبي ؟!
دُميَّة صبغتها من الحُلم الحلو
ورصّعها بأطباق شهب،
عائقتها أمنيّتي، قبل أن همّت
بكونٍ وأيّعت في تحيال،

كانت التوق من ذراعي، إذا مُدَّت،
وكانت، إذا هجست، بيالي.
مَنْ مِنَ الْبُكَرِ الصَّبِيَّاتِ لَمْ تَحْلَمْ
بزوش، ولم تُعَلِّ عَلَى اسْمِهِ؟
تتناسي له المزاليج عمداً،
خوف إن تعنف المزاليج ثدياً،
وإذا صار لي أنا — أنا وحدي ! —
جئت ترتدني إلى قدموسا؟
ظالم أنت !

الأعشى

لا، عروس إلهي،
لست أرضاك للشّمات عروسا !
تبصرين الربّات، في رفرف الأولمب،
يهزأن بالغرام الفقيد ...
يتمطين في الأسرة والخز،
وهزج الحلي، وكذس الورود ...
« أي أرض، يقلن، طفلة حب،
جرّأته على جمى الأرباب؟ »

أُسِدتُ، سكرةَ الهوى، واستفاقت :
يا تراباً أشواقه للتُّرابِ ! «
قهقهاتٌ كيف الأسنةُ في الوقع،
وكيف انتفاضةُ البُنيانِ !
يفعل الهزءُ في الجبال !
أورب

مستضعفة

لمن قلتُ ؟
وهزئي بي هَدْنِي وِبراني
متذكِّرةَ وطنها الذي هجرته
شَرِّقي، أيها الصِّبَاءُ، علَّ غُصْنًا
عند حصباءٍ، ما يزال وُفْيًا،
هجرته عصفورةٌ كان مَغْنَاهَا،
وكانت غرامَه العبقريَّةُ ؛
ما شكا مرَّةً سَقامًا، ولا تَتم
في مسمعِ الليالي بَعَثُبٍ،
وُجدتُ فاكْتَفَى، وما هَمَّه
للغصنِ كانت أم للحضيضِ الجَدْبِ !

آيَةُ الْبَالِ حُبُّهُ ؛ رَاحَ يَعْطِي،
 لَا ارْتَضَى قَبْضَةً، وَلَا هُوَ آثَرُ،
 يَسْأَلُ الْخَيْرَ أَنْ يَكُونَ، سَوَاءً
 نَالَهُ الْمُجْتَئِدِيهِ أَوْ نَالَ آخَرُ !
 مَوْطِنِي ذَاكَ، فَاحْمِلِيهِ عَلَى الْعَتَبِ،
 إِذَا جِئْتَ مَوْطِنِي ذَاتَ يَوْمٍ،
 يَا صَبَا، وَاَنْظُرِيهِ مَا زَالَ يُضْفِي
 فَوْقَ جِرْحِيهِ بِسَمَةٍ بَدَلِ لَوْمٍ .
 هُزُّوْا بِي، وَصَافِحْ مَوْطِنِي عَنِّي ؟
 لَأَيِّ النَّبَالِ أُوجِعُ وَقَعاً ؟ !
 لَا مَرَدُّ !

الأعمى

محاوَلًا المُضَيِّ فِي إِضْعَافِهَا

إِلَّا التَّقْـسَاؤُكَ قَدَمُـسَا
 تَقُولِينَ : « عُدُّ بِنَا ! ضَبَقْتُ ذَرْعَا !
 أَيْنَ مِنْ عَشْتَرَوْتَ مَيْعَةً أَوْ رَبِّ،
 وَمِنْ زَوْشَ مُدْعَى قَدَمُوسَا ؟ ! »

أورب
قلت شقَّ الصَّوابِ، والحقُّ كلُّهُ ؛
لا تَمُسَّ الأقداسَ، أعمى البيوسى !

الأعمى
معرضاً بضعفها
ساعداً المرء، لو دريت، هو الحقُّ،
وما الناس والسَّواعِدُ مَرْضَى ؟

أورب
مُلِمَّةٌ الى قوَّة قدموس
قل، فما همَّ ما تقول على الغمدِ،
وإِما إن شِمتَ سيفاً فغضاً.

الأعمى
ويلك ! حُدِّي من مطمعٍ لم يرَ النُّورَ ،
ومن خفق أجنحٍ لم تهلَّا ؛
وارجعي في ركاب قدموس، لا أنتِ
افتتحتِ العلى، ولا هو ذلًّا.
ولخيرٌ تنازلٌ عن حبيبٍ
من رجوعِ القدموسِ حِمْلَ المَحاملِ؛

بسخرية

وتقولون — يوم تهزج صيدون،
ويمشي إلى السفين الساحل؛
وتموج الغصون من قِعم المَكْمِل؛
جذلي، إلى مطل الغروب — :
« هو هذا اليردها من إله ... »
وهي هذي التسله من نوب ... »

أورب

رادة على تعريضه بأهلها
تصدياتُ اليدين لسن خفوقاً
من فؤاد : يَمْضِينَ هُنَّ، ويبقى ؛
صفقت للطللاء كَفٌّ، ولم تخفق
ضلوعٌ ألا لما كان حقاً.

الأعمى

بُعْدَ ما خلّيتني زعمتُ — ولا أُمّلتِ،
عبرَ البحار، صيدون، زِفدا —
أنا قصدي لو رحتِ تَصْبحين من زوش،
وقدموسُ من بوعى فتجدا.

أورب
كشّر النّصْحُ عن نيسوب !

الأعمى

مصطنعاً العتاب

تجنّيت.

أورب
وما النصْحُ لم يُجلِبْهُ حُبُّ ؟
عَضْداً جئتني، فهضت جناحي،
دَعَكَ لا لي قوَى، ولا لك ربُّ !

الأعمى

مستأنفاً محاولة إضعافها

قسمةً فاكتفي.

أورب
شعرتُ. تشبّث،
أيّها الحُلُم، بتّ عند الشّفير.

الاعمى

مغرياً إياها بالاستسلام لقدموس

دربُ قدموس من هنا.

أورب
ويك ! دَعْنِي.

الْأَعْمَى
وقريباً يَمُرُّ.

أورب

مشيخة عما يدعوها إليه

يا أرضُ، دُوري !

المِسْحَرُ الثَّانِي

أورب ثم مري

أورب
مُرَّةً لفتني الى النّجدة الجوفاء،
والصدرُ بالفراغ يضيّقُ ؛
أنا مرميةُ الطّريق بكتّني،
لبكائي وما هدّثني، الطّريقُ.
بين قدموسَ، سيفِ أهلي، ووحش الغرب،
واقبي طعنةُ الخالداتِ،

مهجتي، إن نُسبتُ عرقاً، وزندُ الباسط
 النجمَ والسَّهَى لالتفاتِي.
 يا لَسَهْمَيْنِ لَوْحاً فأذلاً،
 في سماواتها، عُلَى عُفْوانِي.
 مَنْ يُصِيبُنِي أَقْلٌ لَهُ عندَ قبري :
 « لِمَ، يا سَهْمٌ، أَنْتَ دونَ الثاني ؟ »
 محطمة تكاد تسقط عياء

ما لعيني غامتاً، ولقلبي
 أثقلتُهُ مرارة فتداعى ؟
 وتراخت يدي تلمسُ لحناً
 كنتُهُ في المدى، فألفته ضاعاً ؛
 وتهاويتُ رَغْدَةً للقائِي
 هذه الأرض، عندَ وقعي، أرضاً،
 مِنَّةً، يا دقائقاً لم تزل تسبح
 حولي، لا تنهبي الدهر ركضاً.
 تدخل مري فتلاقيها كأنما تشكو
 عبثٌ رُدُّه !

مري
 عَلِمْتُ.

أورب

متفكرة ثم كأنها وجدت حلاً

أناة

لم يزل أن أراه.

مرى

باستغراب وهول

أنت ؟!

أورب

ونحيا.

مرى

وتعودان ؟!

أورب

بحسرة

ما عطف إلهاً

فوق زندي !

مرى

ولا هو احتل دنيا !

مستطلعة يبر أورب

رأيك الرأي أم ركنت إلى آخر ؟

أورب
لم أستمع لآخر، عمري.
مرى

غير مصدقة
أي سم!

أورب
نفسه، أنا وحدي.

مرى
لست صيلاً !

أورب
بذلته اليوم.

مرى
كأنما درت أن الأعمى هو الذي أقنعها
أدري.

أورب
لا تقصيتني، عزمْتُ فلا أرجع.

مرى
لا قلت

أورب

أو تكوني الرسولا.

مرى

باستغراب وهول أشدّ

أنا ؟!

أورب

مستعطفة متذكرة

تستحلفينه يلبانٍ

طابَ طعاماً على فَمِينا، وسُولا ؛

بليالي سهرتها لم تبالسي

طاوَلتُ أم دجث، إذا نحنُ كُنّا ؛

بيدٍ إن تضمَّ توردهُ عمراً ؛

وبقلبٍ ان يُعطِ يُسكنهُ ظناً ؛

بأغانٍ عندلتها عند مَهْدِينا،

فقاما على جناح اليمامِ،

أنْ دَعِ الضربةُ الغيبةُ، قدموسُ،

فما كنتَ خنجراً في الظلامِ.

أنتِ أنتِ الوحيدةُ الوقعِ في قدموسَ !

مري
 رفقا ! أنوءُ بالعبء حملا،
 أطلبني العمرَ أمتهته على رجليك،
 لا تطلبني إليّ الذلا.
 أنا علمته التمرسَ بالمجد،
 ولقيا الفرسان صدراً لصدر،
 ومَحَطَّ العيون فوق، وذرَّء السَّيل
 يهوي بالراسيات ويذري،
 وابتدارَ الجلى بأسبق من جلى
 كأنَّ عوجلَ القضاء برد،
 واقتحامَ اليموت لم يلتفت ظهراً،
 ولا حُدَّ في العطاء بحد.
 أتريني، أوروبُّ، أنقض قولي؟

أوروب
 ودموعي هذي؟ ونَحْمَشُ الخدود؟
 وابتشاسُ الغيمات والموجِ والشُّطَّانِ
 في مدَّ طرفي المهودود؟
 أهني أشياء؟ لا، وأفديك من أشياء
 تشجى شجوي وتأسو جراحي.
 أذكرها يوماً.

مرى

كأنَّما لا تجد ما تقول

أُحِبُّكَ !

أورب

بعتاب أليم

حقاً ؟

مستطردة

واذكريني على ضريح الصباح
كان قصراً هذا الوجود، فكيف انهار،
والعمرُ سانسُح في فئائه ؟
وهوى بالعلي من عُمْدٍ هيفاء
راحت أشلاء خلف مسائه.
نوّحت حيث كان زقزقة الطائر،
ما آنست كأمس صبحابا.
تنهر الشانيات، كرت على الأرض
ثقالاً أن لا تحري الثرابا.
قُبَلاتُ هنا، وسكُبُ دموع،
وقلدودُ هناك، غنت ليانا.
أيّهدي الانقاض، أوديت بالحلم،
فهيلي من فوقه البيلساننا !

مرى

موجعة نافذة الصبر

رأفة بي !

أورب

بعتاب

وانتِ ؟!

مرى

أرأف من سهمك .

أورب

كأنما شامت بارقة امل

ماذا ؟ رَضِيتِ ؟

مرى

لم أرضَ بعدُ.

أورب

بعدُ ؟! يا طيبَ مَنْ يَهْمُ بوعدي ...

مرى

لم أَقْلَ، لا.

أورب

... وما هنالك وعدٌ !!

مرى
أَوْتَرُضِينَ لِي بِهَا، إِنْ أَنَا أَرْضِي؟

أورب
أَنَا اخْتَرْتُ بَيْنَ شَرِّينَ.

مرى
كُفِّي.
كَلَّمَا رُحْتَ تُقْنَعِينِي، شَعَرْتُ السُّمَّ
فِي بَسْمَتِي لَهُ، قَبْلَ كُفِّي.

أورب
أَوَأْذَمِي مِنْ مُرْتَمَائِي أَنَا أَلْقَاهُ؟
مَاذَا! وَيَنْطَوِي الْيَوْمَانِ؟
عَهْدُهُ هَهُنَا، وَعَهْدِي بِدُنْيَا
زَوْشَ، وَالصَّفْوَى، وَالْهَوَى، وَالْأَمَانِي!
كَانَ لَا بُدَّ مِنْ هِنَاءٍ يُضَحِّي،
فَلِمَ اثْنَانِ؟!

مرى
لَا ظَلَمْتُ مُرَادِي.
لَمْ يَفْتَنِي أَنْ لَوْ تَرَجَعَ قَدْمَوْسُ
لَكَانَ السَّوَادُ بَعْضَ سَوَادٍ.

وَبَقِينَا : أَنْتِ الْمَلِيكَةُ فِي زَوْشِ،
وَأَمَّا أَنَا ...

أُورَبْ

كَأَنَّمَا تَرِيدِ وَقْفَهَا

مَرَى !

مَرَى

... فَخْؤُونَةُ ،

زَيْنَتْ خَفْضَةَ الْجَنَاحِ لِتَسْرِ
شَكَّ فِي مَلْعَبِ النُّجُومِ جَبِينَهُ.

أُورَبْ

مَنْ ؟ مَرَى، مَنْ سِوَاكَ يَرَأْفُ بِي بَعْدُ ؟

مَرَى

هَرَجَاءْ

حَنَانِيكَ لَا !

أُورَبْ

مَرَى، رُحْمَاكَ !

وَكَمَنْ أَمَلْتَ إِقْنَاعَهَا تَرُوحُ تَغْرِيبَهَا بِأَنْ تَدَلَّهَا عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي
سَيَسْلُكُهَا قَدَمُوسُ

هذه دربه، وقبل بُزوغ الصُّبح.

مرى

مُشيحة بدورها عَمَّا تدعوها إليه

سُمِّرت، دُورَةَ الأفلاكِ !

البيوسى غداً أغاريذُ نصرٍ
حول تَنِينِها، وهَزْجُ نساءِ،

وفتى الشرق مُوَحَّدٌ، لا قُدودُ
راقصاتٍ لسيفه المعطاء.

أولن يستثيره، يا ترى، الشوق،
ويشهى كأنَّ الى صيدونِ ،

ويقول : « اصعدي إليّ دُفوفاً
ومزاميرَ واشهدي ليَمِينِي » ؟

فيراني ألقاه مقروحة الأُجفان،
ندابةً أحرُّ الجَلامِذِ ! ...

صارخة كأنَّما استشعرت أنها إنَّما تكلمت مقتنعة
لا ! وجُمِّعن بي، نساؤك ، صيدونُ،
غداةً ابْنُكَ استطاب الزُّغارُذ.

أورب

يأس

أنا رِيحانةُ الخريف شجاني
نبأ الغيب مَزَقَتْ أَسْأَرُهُ،
غدي الزمهريرُ إن قلتُ أبقى،
وربيعُ أَمْسِي يَهْدُ اذْكَارُهُ.
كان أيارُ وافراري في السَّوْفِ،
ويأتي الآتي وأحلاه فُضًّا،
لم يزل لي إلّاكِ، يا صُفْرَ اوراقِ،
فَطِيبِي كحلاً لعيني، وغمضاً.
واغمريني، فانت أحنى على الأرض،
وأبقى من كلِّ رفٍّ وهَلٍّ،
أُعلَى سؤلُهُم ! وما بكِ من فقْرٍ،
فظلّلي فريدةً دون سُؤلِ.
بقيتُ خطوبةً إليه، وتُحكي
قصةً من تُخرافيةٍ ومُحالٍ !
قيل : « كانت إلهة. » وانتهى القول !
فيا طفلةً لَهَتْ بظلالٍ !!

نافذة الصبر

ما لقدموس لم يُطْل؟

مرى

كأنما تستيقظ من غفلة

كليه

لي. رضىتُ التقاءه بدموعي.

أورب

كأنما لا تصدق

أَوْحَقًا !

مرى

طبيبي — فديتكِ ! — نفساً

واطمئني إلى جريحِ ضلوعي.

تعانق أورب

أورب

قادمٌ من هناك.

مرى

طلعةُ قدموس !

أورب

قبل أن تخف إلى الكهوف التي سوف تختبئ فيها
تسملت، يا مري، آمالي.
ليس إلا يداك بعد : تشاءان،
فصبح غدي، ولا، فليال.
واحذري لا يخنك لفظ كحد السيف
يفري، أو كالتعلات يفري،
إن يفت قولك النفاذ إليه،
فأنا ههنا لأفصح أمري،
وتكونين أنت سلميتي

مري

ربي !

أورب

وتحيين من يدك . بشأن !
كلما هممتا تراءى لك الإثم،
فأجفلت منهما تلحقان !!
تلجأ إلى أحد الكهوف

المسحدر الثالث

أورُب (مختبئة)، مري، ثم قدموس

مري

رأفة بي ! وهمتني جلمد القاع،
ولي — من مُصدّقي ؟ — بعض قلبي،
يصدم الصّخر في الليالي فيرنو
قائلاً : « هل أصبت صخرًا بكرب ؟ »
ذدت عن ركبنا إلى الشمس بالغضبة
جاشت في صدري المكلوم،
لست فيهم، فهل أقل من الإيمان
بالفاتحين أرض النّجوم ؟
هو قدموس ! ما أقول لقدموس ؟
وهل في الوجود غير الحقيقة ؟
شيمة النّبرة العلية في أهلي،
وفي تلكم الجبال الطليقة،
طوقونا بها قلائد حسن،
وزهونا بها على كل شاهق،
ربّ ان خنتها فلا خفقت نار
بصدري، ولا نعت ريارق !

بعتاب لنفسها مرير

ويَحْ أَوْ رَبِّ ! ما أَرَادَتْ وما نالت ؟

خداعاً منّي لنفسي العليّة ؟

وكلاماً يُنمّق الزُّورَ في عيني

ويُودي بالمَكْرُمات السَّرِيّة !؟

لِمَ، يا قول، ما عَيَّتَ عن القول،

ولا رُحْتَ شِمْة الصَّخَرِ شهما !؟

شرف الصَّخَرِ أَنَّهُ القَبْرُ لا يُنطِقُ،

حين القولان تَجَوَّابُ أعمى.

ما الحياة ؟ انتباهة من فتى سَكَرَانَ،

عارٍ، مشوهِ القَسَمَاتِ،

وقَعَتْ عَيْنُهُ على حاله، فانهال

شتماً على الصَّبَاحِ الآتي،

ثَمِلاً ؟ كان. والذي يَلْطِمُ الآن

جِيناً كَمَنْ يَحْطُمُ آئَهُ،

ليس في سَكْرَةٍ ولا في خبالٍ :

بَشَرٌ مَجَّ لِلْبَلَى انْسائَةً !

يدخل قدموس فيصدمها بقلده السِّلَاحِ

أَسِلَاحٌ، قدموسُ، والخصمُ أفعى !؟

قدموس

معرضاً بها هي وقد تواطأت مع أخته على الهرب
عدتُ أنحشى، مري، نيوب الأفاعي !

مري

لنفسها

ربّ !

لقدموس

والعهدُ بالنُّزول الى الساحات
كالحقّ، أعزلاً، والشُّعاعِ ؟

قدموس

كان.

مري

مَنْ ذا يقولها ؟ أنت، قدموسُ ؟!

قدموس

مستمراً في التعريض بها

وعَمَّن أخذتُ نُقْضَ العهودِ ؟!

أُقْصِرِي ! فَيَسْمُ جئتِ ؟

مري

أَسْأَلُ حَقَّ

العبد — فأرأف به — على المعبود.
 ما أنا من تروغ، أو ترتضي الزور :
 أنا جئت أطلب المستحيلا،
 أنا أدري أن ليس يُعطى، وإن تجعله
 صيدون سُؤلها المأمولا،
 مطلبٌ ذلٌ مجتديه ومعطيه،
 وجرحٌ لخاطرٍ يستعيذه،
 ولمهما تحط مني أعلم
 ما لبان أرضعته — فأريده !

قدموس

بُهَلَع
 تطلبين انكفاء صيدون !

مرى
 لا قلت، حنائيك، لا !

قدموس

لمن تعملينا ؟

مرى
 إسمعي، يا طويّتي، ظنّني خنت.
 وقدموس، ما خفضت جبيننا،

وبلادي — أنا ! تراها هو الكُحل ؟

قدموس

كأنما يخاطب نفسه

لها نبرة البريء أوصيا !

لمرى وقد عاوده احتياجه

ويشير الضمير ما طلبت مني !

تمزقت، يا قناعاً كذوباً،

حسبنا رشفة من الكأس، هل ألفت

في الكأس غير سُمِّ نافع ؟

رُبَّ أفعى كسوتها ثمن الخبز

حريراً، وبات طفلك جائعاً !

مرى

بتجلد

أعطني، ربُّ أنْ أُغالب صوت الدَّمع

صبراً، وإنْ أنا اشتقتُ دمعاً،

فبكاءً ويكفهر صفاء العيش

أندى من الهنئات وقعا.

أُخنقي من أساكِ، يا عبراتي !

لقدموس موقظة منه تذكارات الطفولة

هل يقولُ الماضي لقدموسَ شيئاً ؟

ما أنا اليومَ في الوجود، أنا في الأمس :

لبنان في مدى عينيّـا،

ذاك قدموسُ دارجاً عند بابي،

وذراعاه مُدَّتَا لعناقٍ ؛

من رأى يا تُرى ؟ أمنّ تسهر الليل

عليه أم ... رِمةٌ من نفاقٍ ؟!

قدموس

متأثراً، نافد الصبر

لا، وتُفدّين، لا تقولي ! تهاوى

كلُّ ما بي من شاقٍ تيّاه،
وبكاني الطفلُ القديمُ.

مرى

بعتابٍ وحبّ وعبادة

تجنّيت،

رضيعي، وسيدي، وإلهي.

قدموس

بحيرة

مَنْ تُرَانِي مَرَجَحاً حِينَ أُخْتَارُ :
مِرَى الشُّهُبِ أَمْ مِرَى الْأَوْحَالِ ؟
صَفْحَةً تَعْبَقُ الْكَرَامَةَ مِنْهَا
أَمْ صِرَاطاً يَجْرِي وَرَاءَ الضَّلَالِ ؟

مِرَى
لَمْ تَزَلْ وَاجِداً عَلَيْهَا وَيَكِي
لَأَسَاهَا، لَوْ يَنْطِقُ، الْجُلْمُودُ ؛
غَدُّهَا ...

قَدَمُوس
آه ! حَبِّذا غَدُّهَا يُطَوَّى،
وَتَبْقَى هَذِي النُّجُومُ السَّوْدُ !

مِرَى
أُنْجُومٌ مِنْ بَعْدِ أَوْرَبْ ؟

قَدَمُوس
مَنْ أَوْرَبْ ؟
مَاتَتْ مُذْ وَدَّعَتْ لِبْنَانَا !

مرى
لم نودّع ما بات في الصّدر حبّاً،
حيثما الحبّ كان، لبنانُ كانا.
دُعكَ لا تحفلِ الحفيظة، قدموسُ،
ولا تجتدِ السّلاحَ البوارا.
يعدلُ الحُكم يومَ يصلحُ أهْلوه،
فما هم ضغينةٌ واثّارا.

قدموس

وقد عاوده حُنفه عليها
أنتِ ؟ ما أنتِ والتَّبجّح بالعدل ؟
تُرى العدل عاد دُميّة لا عِب ؟
لفظةٌ في فم الأثيم ؟ ألا يخجل
أعمى يرنو إلى الشمس، كاذِب ؟
كان لي بعضُ رحمة فاستحالت
مذ نكأتِ الجراح حِقْداً وثارا،
وإنّحال الهوى توخّشَ في صدري،
فأنشبتُ في الهوى أظفارا.

مرى

لنفسها

رَبِّ، أَمْسِكْ بِهَا ! فَلَ لِقِيَّتِهِ
وَحْشٌ غَابٍ.

لقدموس

عهدي بقدموسٍ أعلى.

قدموس

إِثْمٌ أَوْ رَبُّ حَطْنَا مِنْ عُلاَنَا
وَكَسَا أَرْضَنَا، عَلَى الدَّهْرِ، ذُلًّا !

تظهر أوروب من مخبئها نافذة الصبر على رزاة

مرى

رَبِّ ! عُمْرُ الْإِلَهَةِ الْآنَ ...

أوروب

عُمْرٌ ١٢

ماءٌ وجهي أعزُّ عندي وأبقى،

أَغْمِدِ السُّيْفَ فِي فَوَادِي يَقْطُرُ
شرفاً، عندما يُسَلُّ، وَخُلِقَا !

قدموس

ويكون قد حاول مَلَّ سيفه، فيعيده إلى غمده
لا ! وسيفي يَعْفُ عَنْ طَعْنِ أَنْثَى.

أورب

متحدية كأنما تريده إلى قتلها

أنبا ؟

قدموس

بغضب

بل سخا.

أورب

بغضب رزين

رددتُ السَّخَاءَ !

لستُ أخشى، قدموس، سيفك فاضرب ؛

ما صباح أهنته، وأضاء ؟!

قدموس

وبلاذ هجرتها !.

أورب

دعك منا.

بين طير وعشها أسباب،

كل يوم لها طواف بدنيا،

والطواف الأشهى إليها الإياب !

أنا أوروب، عُد بأروب، قدموس،
ولا يَقْتَتِل بي الوطنان.

قدموس

إنطقي بأسم واحد.

أوروب

لا. وهذا

وطني بالهوى، وذاك نَماني.

قدموس

لستِ منا !

أوروب

رُحماك !

قدموس

رُحمي لمن تَخْفِضُ

أمجادها وتَنسى الودادا ؟

أوروب

دامعة العينين

ضيقْتُم بي ؟! ورحمةً من بلادي

تَسع الأرضَ حَيَّها والجمادا !

قدموس

أبلاذ عقت، وظلت على العهد !؟

أورب

بلادي أنا، ولبنان عهد !
ليس أرزاً، ولا جبلاً، وماء ؛
وطني الحب، ليس في الحب حقد .
وهو نور فلا يضل : فكذ ،
ويد تبداع الجمال، وعقل .
لا تقل : « أمّتي »، وتجتاح دنيا ؛
نحن جار للعالمين وأهل !

قدموس

عبث : لا أعود أو يقهر الغربي

أورب

بهول كأنما تتوقع ما سوف يقول

لا لا، تضل !

قدموس

أهوى الضلّالا !

أورب

وتكون قد أشاحت بوجهها عنه وهو يقول : « أهوى الضَّلالا » ،
وتجديفه هذا على المعرفة انما يطعنها في الصميم .

يَمْ تَفَوَّهَتْ ، يَا أَخِي ؟ عُقَّ صِيدُون ؛
وَعَيَّضْ أَنْهَارَهَا وَالْجِبَالَا ،
وَأَشْرَبِ الْخَمْرَ فِي جَمَاجِمِ أَهْلِهَا ،
وَذُسْ تَاجَهَا ، وَذُلُّ السَّرِيرَا ،
وَأَزْرَعْ الْمِلْحَ حَيْثُ مَاتَتْ فَمَا تَحْيَا —
وَلَا تَذَكِّرِ الضَّلَالَ فُخُورَا !

قدموس

وَيْمَ الْفَخْرُ ، بَعْدَ أَوْرَبْ ؟

أورب

بِالرَّحْمَةِ

سَطَّرَتْهَا سَخِيًّا شَفِيقَا ،
تَأْخُذُ الْعَالَمِينَ بِالرَّفْقِ وَالطَّبِيبُ ،
وَبِالْهَدْيِ ، إِنْ يَضِلُّوا الطَّرِيقَا .

قدموس

أَيَّ عِرْقٍ فِي الْغَرْبِ يَنْبِضُ بِالرَّفْقِ ،
فَيُجْزَى الْجِزَاءُ حُبًّا بِحُبِّ ؟ !

أورب

أيّ صيدونيّ تربيّ على البغض،
فيحيا للثأر ضرباً لضربٍ ؟!

قدموس

علّمونا، فسوف نضرب بعد اليوم.

أورب

عارٌ ما قلت، قدموس، عارٌ.
قلّ : « بل الخير أن نعلّمهم نحن،
فما علّم البناء الدمار ! »

المقاتلة الأغارقة

من الدّاخل

طابَ طابَ القتال !
واغتدى اليوم قصير الأجل،
ضجّ، يا فجر، وقلّ للأزل :
نجمٌ صيدون مال !

ما لها تُطرق،
مذ جرى الغربيّ، هذي الجبال ؟
وامّحى عن جانبيه المجال !
وامّحى المشرق !

نحن، يا شرق، لا
ننتهي، أو نقهر المركبا ؛
غُلَّ بحرًا، وافتح كوكبا،
ثَبِّقْ دون العلى !

قدموس

وقد تحدّاه الأعمى بنشيد الأغارقة
واجبي.

أورب

في محاولة أخيرة كأنما تراب بلادها أقدس ما تستحلفه به
لا، وتربّ صيدون، لا تحفلْ

قدموس

رادًا استحلافها، مشدّدًا على عظم الواجب
بلى واجبي دعا.

أورب

منكسرة

لا تسرع !

واتشدّ عندما تردُّ ذراعاً ؛
رُبَّ قلب خلف الذراع تقطّع.
عدّ بنا، يا أخيّ، ها أنا أرجعت.

معاذَ العُلى الرُّجوعُ بمرأه،
 والنِّزاعُ اغتدى نزاعاً على الدنيا،
 وحُكَّتْ بجُرأتى كُلُّ جُرأه !
 هُمُ أرادوه دامياً، فليكنْ أدمى،
 ويفصيلُ على كُرور الزَّمانِ،
 بينَ سَيفِ أَهْلِ اعتداءٍ وسَيفِ
 هادمٍ حده، وبالهدْمِ بانِ.

ستار

الفصل الثالث

الاستعداد الأول مري وحدها

محاولة تشدداً

لا، ولبنان، ما نمشي جبال
كُرمْت فازدرت من الناس لوما ؛
لا، ولا عزمة بمجذاف طفل
حالِم كيف يلجم البحر يوما ؛
آن أشرفت من بعيد على الوحش،
وبني بعض رِعدة واهتياج،
في الشعب الرّمضاء من بطن واد
مدلهم كما المائم داج .

لم أكن شِمتُهُ فأعتاد مرآه،
 ويا هَوْلَ ما تصدَّى لراءِ !
 ذلك الغربُ مستحيلًا إلى الصِّلِ،
 غويًّا بالمِخْلَبِ المِعطاءِ.
 خفَّتُهُ — عَفْوُ رُذْنِ قَدَمُوسٍ ! — يهوي
 فوق قَدَمُوسٍ، ضافِي الجسمِ، طَوْدًا
 ساحقًا، ماحقًا، يكاد حُضِيضُ الأرضِ
 يخشي له، إذا مرَّ، عَوْدًا.
 ما دهاءُ الرِّجالِ ؟ ما الغُضْبَةُ المِئْنافِ ؟
 بالُ معطَّلُ مسحورُ،
 أيُّها الغربُ، هاتِ ما ليس بالضَّخْمِ.
 كبيرٌ ؟ بالعقلِ أنتِ كبيرُ !
 ربما رُحِتَ تقهرُ الأُمَّةَ الحَفَنَةَ
 أرضًا، والعِبقريَّةَ أَفْقًا،
 فاخشَها، عهدَ قولِها القولُ، هَبَّتْ
 تتقاضاك، أيُّها الغربُ، حقًّا !

يشند تشاؤمها

لَمْ أَخَفْ، لا ! وريَّةٌ خامرتني
 أنا جسْمُها فحرثَ ضلوعي.

وَلَمْ اللَّيْلُ فِي شُعَاعَةِ عَيْنِي ؟
 وَعَلَامَ الْجَفَافِ طَيِّ رَيْعِي ؟
 مَنْ أَسْرَاحَتُمَا الْخَسْفُ فِي رَوْعِي
 وَقَالَ : « انْتَهَى غَدَاً ، قَدَمُوسُ » .
 تَوَامُّ الْعِزِّ ، حَامِلُ الشَّرِّ الْأَوَّلِ
 يَهْوِي ، وَفِي الْوُجُودِ شَمُوسُ !
 سَوْفَ نَبْقَى ! يَشَاءُ أَمْ لَا يَشَاءُ الْغَيْرُ ،
 فَاصْمُدْ ، لِبْنَانُ ، مَا بَكَ وَهْنُ !
 سَوْفَ نَبْقَى ! لَا بُدَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ حَقٍّ ،
 وَمَا مِنْ حَقٍّ وَلَمْ نَبْقَ نَحْنُ !

الْمَسْحَدُ الثَّانِي

مَرَى ، أَوْرَبُ

أَوْرَبُ

بِتَقْرِيعِ

إِطْمِئْنَنِي بِالْأَمْرِ ، اشْتَبِكِ الْقِرْنَانِ .

مَرَى

رُحْمَاكِ ، لَا تَرِيشِي السَّهَامَا !

أورب
انا ؟ مَنْ لي بها فَأَرْسَلَهَا تَفْتَتْ
من مهجتي دماً وعظاماً !
متذكّرة نزول قدموس إلى السّاحة
رمقته عيني، فيا بؤس عيني !
يقحم الموت، عهدّه وهو قانص،
يضحك الضّحكة المُرّة كالشّهم،
ويجري كَرَعْدَةٍ في الفرائص.
حمّل الريح وقعه، أنا قلتُ الشّطُّ
يُصغي، والبحرُ يعروه هَمْدُ،
والصّباحُ المسفوخُ في جَمَمِ الأمواج
يعلو، كَمَنْ أطلّ، ويشدو.
داس ضَرَعُ الإغريق قدموسُ كَبْتاً،
عبريَّ الهَمّاتِ، طَلَقَ المُرادِ،
لم يَزِنْ خَصْمَهُ، ولم يَزِنِ السّاحةَ،
كالطّود لم تُخَفِّهُ عَوادِ.
ومشي، مسحة السّني، هل نضا سيفاً ؟
وهل سَلَّ خنجراً من حزامه ؟
لا، وروغُ التّين يَغلي وعيناهُ
مهاوٍ من القلي ومهامِ،

يتمطى تهَيَّوُ الحامل الضاري
وتجواب طيع الجسم، ضامر،
يضرب الأرض بالجناح وبالذيل،
كما يقحم المحال مكابر.
قال قدموس : « ها أنا ! » واحتواه
بذراعيه.

مرى
أَكْمَلِي، ضاق صدري !

أورب
لم اشأ أن أخط في الأوجع الطرف،
فروحي اشهديهما، عند قبري !

المستحدر الثالث

أورب وحدها

نؤت، نفسي، بالعِيب، فاعتمدي الأرض،
أما هزنا إليها الحنين ؟
وانتحي مطرحاً من الصخر خشناً ؛
رُبَّ صخر، عند الشكاة، يلين.

رَبِّ، ما نَفْحَةُ السَّعَادَةِ فِي الْأَرْضِ ؟
 ضُحِيَّ خَاطِفٍ يَزُورُ النَّيَامَ ؛
 حُظُّهُمْ مِنْهُ مَطْمَعٌ بِالتَّلَاقِي،
 فَإِنْ اسْتَيْقَظُوا غَدَا أَحْلَامًا.
 أَنَا خِلْتُ الْحَيَاةَ مَدَّ ذِرَاعَيْنِ
 إِلَيْهَا، وَرَشَفَ ثَغْرِ جَمِيلٍ،
 وَاكْتَحَالَ بِالصَّبْحِ وَالْأَمَلِ الطَّلُقِ،
 وَمَرَّأً فِي خَاطِرِ الْمُسْتَحِيلِ.
 ضَجَعْتُ فَوْقَ أَضْلَعِ وَاجِدَاتٍ،
 وَقِيَاماً عَلَى سَنَى وَأَرِيحٍ،
 ضَاكِكاً وَجْهَهَا لِبُحْبُوحَةِ الْعَمْرِ،
 عَلَى رَتْنَيْنِ مِنْ دُمْلَسُوجِ.
 فَتَبَدَّتْ جَوْفَاءَ كَالْقَبْرِ، إِلَّا
 مِنْ مَخِيفِ الْأَطْيَافِ وَالْأَشْبَاحِ،
 خَفَقَةً شَابَهَا دَمُ الْأَجْنَحِ الْبَيْضِ،
 وَنَفْحُ عَرَاهِ مَوْتِ الْأَقَاحِي.
 لَيْتَنِي رُحْتُ لَمْ أَضِقْ بِهِمَا ذُرْعاً،
 وَحُمِّلْتُ شَيْ كُرُورٍ ثَوَانِ،
 أَشْهَدُ السُّمَّ كَيْفَ جَوَّدَهُ اثْنَانِ
 لِكَأْسٍ هَمَا بِهَا ثَمْلَانِ.

تَوَاقَّةٌ إِلَى جَسَسِ الْمُسْتَقْبَلِ
 مِنْ مُزِيحِ الزَّمَانِ عَنْ عَرْشِهِ الْغَفْلِ،
 وَمُسْتَصْرِخٌ، مِنْ الْغَدِ أَنَّهُ،
 عَلَنِي أَفْجَأُ الْغُيُوبِ سَلَاماً
 قَبْلَمَا تَغْتَدِي ظُبِّي وَأَسِنَّةُ.
 أَيُّهَا الْأَنْتِظَارُ، يَا صَفْحَةً مِنَ الْعَمْرِ
 حُبْلِي بِكُلِّ مَا لَيْسَ يُقْرَأُ،
 صَخْرَةً عَيْنُهَا عَلَى الْآنِ شِدَّتُهُ
 إِلَى بَعْضِهِ، فَسُمِّرَ دَهْرًا !

المشعر الرابع

أورب، الأعمى

الأعمى
 سَلَّ سَيْفًا قَدَمُوسُ مَا حَدَّه حَدُّ،
 وَحَامِيكَ مَشَخَّنٌ بِالْجِسْرَاحِ.
 أورب
 لَا تَخَفُ أَنْ تَقُولَ: «مَاتَ !» وَلَمْ يَتَّقِ
 لَعِينِي مَطْمَعٌ بِصُبْحِ !

الأعمى
لم يمتْ فانْجُديهِ !

أورب
ويحك ! ماذا ؟
أو أغدو من خلف قدموس خنجر ؟

الأعمى
إنما ذدتِ عن حياتك، أورب،
إذا ذدتِ عن دم راح يُهدر.

أورب
فيم تُغري يدي بسفك دماءٍ
وأنا رحْتُ من يدي أتبراً ؟
يوم دلتِ على البسيطة قدموس
ونخلتِ، انّي تحطمتُ، ذكرى.

الأعمى
أيُّ ذكرى وما وفيتِ بعهدٍ !

أورب
لحييب !

الأعمى

لا بل لحامي حماك .

أورب

يا لوحش . يبغي انتصاراً لوحش . !

الأعمى

بل حفاظاً على كذاب هواك .

أورب

بتفجع وحسرة

هكذا، يا هواي، لوحث تُغريني
بعمري أغنيّة الأدهار !
لم تشأه إلا لتستُر عيأ
هو ظفر، ولا كظفر الضواري .

الأعمى

من ترى أشعل الوغى ؟

أورب

هبة قدموس،

أأقضي أنا على قدموسا ؟

أأخ قاتل أنا ويرى نور؟
ألا دمت، يا دُجى، لي أنيسا !
وتمزقت، قبل أن طبت في ثغرين،
يا قبلة الغرام الشهيد،
للجفون المقرحات، سَتَقِين،
وللدمع حافراً في الخدود.

الأعمى
لو تصبرت وسع بؤسك، فالأقدار
عُمى، تحبو وتمنع.
أورب

تُحَبُّوا !
يقرأ الفجر في غيوم العشايا.

الأعمى
ويُلاقى، قبل الهناء، الصَّعبُ.
أورب
فليكن ما يكون ! أحياء أم لا،
يا حياتي، فما أنا إلا بالي.

الأعمى

محبباً إلى أوروب العيش، قصد استخدامها في ردّ قدموس
أنت، أوروب، تكفرين بنعمي؟
أنت، يا نجمة ثمر يبال.
أيها الحسن، سكب من سكب الشمس،
وقال : « ازدهي على كل حسن.
واخلي حبة القلوب، وضجّي،
في تشيك، بين ريف وجفن.
أنت للتاج، للتحرش بالأولمب،
للعزف طار بالأوتار،
ولأرض جاءت إلى الكون، مذ جئت
على سجة من الأطياف ».
أوأشهى من الحياة؟!

أوروب

بلى، أعمى

البيوسي : استهزاؤنا بالحياة !
يوم تغدو الحياة قسمة حُرّ
حملوه للغدر سيف الجناة.

الأعمى
مَنْ سِوَاكَ الْإِثِيمَ ؟ تَحِيَّينَ حُلُمًا
يَتَخَطَّى الدُّنْيَى، وَنَحْنُ نُقَاسِي !

أورب
مَا غَوَّثَنِي الْعُرُوشُ، يَوْمًا، وَلَا السُّودُودُ:
أَحْبَبْتُ فَاسْتَشَرْتُ السَّرَاسِي.

الأعمى
أَقْصِرِي ! كَرُّ ثَانِيَاتِكَ مَعْدُودٌ،
وَدُنْيَاكَ خَطْفَةٌ فِي الزَّمَانِ.
لَكَ أَمْ لَا رَأْيَ فَقَرِّي عَلَى رَأْيٍ ؛
وَلَاتِ الْبُلُوغُ بَعْدَ التَّوَانِي !

أورب

وَيْلَكَ ! مَاذَا تَرِيدُ ؟

الأعمى
حَجَبَ دِمَائِي.

أورب
كيف ؟

الأعمى
رُدِّي عَنَّا الكُمِّيَّ العنيدا.

أورب

هو يَأْبَى.

الأعمى
دوسي الأبِّي، اقتليه.

أورب

بهول وحب

هو قَدَموس !

الأعمى

لا تُقِمِّي حدودا.

المشعر الخامس

أورب، الأعمى، مري

مري

وقد سمعت قول الأعمى

ألقميه الجواب !

الأعمى

كأنما يبرر مطلبه

أي جواب ؟

صرع الوحش وحش صيدون جينا !

مري

لا ! وكان الخصم الشريف فعلاً ؛

راح يأسو جرح الجريح، ويعنى،

وكمئن بكك انتحى ؛ قلت أسيان ؛

وقلت احترام ندي لندي.

وتمنى لو ينهض الجبل الموتور

يحبوه بالجواب الأشد.

كاد يرضى بالنصر، لولا هتاف

خلته الدهر صدد عند الشفير :

« هَيْتَ، قَدْمُوسُ، طِرْ وَأَنْجِزْ عَلَيْهِ
 فَضٌّ وَازْرِعْ أَضْرَاسَهُ فِي الصُّخُورِ
 تُنْبِتِ الْأَرْضُ مَارْدِينَ عَلَى يَنُونَ
 رُثِييَا أَعْجُوبَةً الْأَجِيَالِ.
 تِلْكَ أُولَى حَوَاضِرِ مِثَّةٍ تُبْنَى
 عَلَى اسْمِ الْقَدَامِسِ الْأَبْطَالِ. »
 عَفٌّ، لَوْلَا أَنْ عَاوَدَ الْخَصَمَ عَزَمَ،
 وَكَمَنَّ هِجَّتْ أَصْبَعاً فِي جَرَّاحَةٍ،
 سَلَّ مِنْ ضَعْفِهِ قُوًى، وَأَتَى قَدْمُوسَ
 فِي جَهْمٍ ثَارِهِ وَوَقَاحَةٍ.
 رَدَّ قَدْمُوسُ عَنْ سَخَا.

أورب
 أوأرداه ١٩

مرى
 تشكّين ؟ شِمْتُهُ اسْتَلَّ عَضْبًا،
 مَا اسْتَطَابَتْ عَيْنَايَ إِنْ تَرِيَا الْقَتْلَ،
 وَعِغْفُ التَّقَاءِ حَامِيكَ كُبَّا.
 الأعمى

أولم تشهديه يسقط ؟

أورب
ما هَمَّ ؟
ويكفي أن سلّ قدموسُ سيفاً.

كأنّما لا يزال يؤمّل أن يكون الوحش على قيد الحياة
ربّما ... فانهدي.

مرى
الى أين أورب ؟
إلى حيثُ يعدلُ الحيفُ حيفاً.

أورب
موقنة أن أورب بلغت من الحمق أن ستطلب عون زوش على قدموس
ألى زوش ؟!

أورب
إي، وقدموس، أرتد
بسيف العلى على قدموسا !

الأعمى

لنفسه
فَعَلَ السُّمَّ فَعَلَهُ . فإلى السَّاحِ .

الشَّهَدُ السَّادِسُ

مرى وحدها

تَضَلَّانِ، وَالَّذِي ضَلَّ دِيسَا !

تُصَلِّي

رَبِّ، رُدَّ الْأَهْوَالَ أَقْبَلْنَ يَضْرِبَنَّ،

وَجُدَّ لَا تَ مَا خَلَكَ يَجُودُ !

رَبِّ، جَلَّتْ يُمْنَاكَ لَا تَعْرِفُ الْقَبْضَ،

فَمَنْ مِنْكَ، رَبِّ، لَا يَسْتَزِيدُ ؟

كَلَّمَا غَبَّتِ الْحَسَاسِينَ مِنْ مَاءٍ،

رَأَيْتُ حُلُوءَ إِلَيْكَ بِشَكْرِ.

وَتَعَالَتْ إِلَيْكَ فِي لَفْتَةِ الصَّبْحِ،

صَلَاةٌ مِنْ زَقَرَقَاتٍ وَزَهَرٍ،

جُمِعَتْ، رَبِّي، الْخَلِيقَةُ فِي صَوْتِي

تُنَاجِي، وَسَبَّحْتَ تُغْنِي،

وَتَمَلَّتْ، فِي رِفْعَةِ الرَّأْسِ وَالطَّرْفِ،

جُثُّوًا مِنْ رُكْبَتَيْنِ وَوَهْنًا.

وَأَنَا أَسْتَجِيرُ بِالرَّحْمَةِ الْأُولَى،

بُنُورِ الْأَنْوَارِ، بِالْيَنْبُوعِ،

أَنْ تَقْبَلَ، رَبِّي، قَرَايِنَ حُبِّ،
وَرَجَاءِ، وَذَلِيقِ، وَدَمْسُوعِ.

أَعْطَا، رَبُّ، قَبْلَ كُلِّ عَطَاءِ،
أَنْ نَحُطَّ التَّفَاتَةَ فِي سَنَاكَ،

كُلُّ مَا دُونَ وَجْهِكَ الْجَمِّ وَهُمْ :
أَعْطِنَا، رَبُّ، أَعْطِنَا أَنْ نَرَاكَ !

وَتَرَأْفُ، يَا أَيُّهَا السَّيِّئَةُ الْكَبِيرَى،
وَتَرَأْفُ، بِاللَّائِذِ الْمُحْتَاجِ،

وَانْصُرِ الْقَابِسِينَ مِنْ فَيْضِكَ الْهَدِيَّةِ
لِلْكُوكِبِ الضُّلُولِ الدَّاجِي.

لَأَلَاتُ كُلِّ هَضْبَةٍ فَوْقَ لَبْنَانِ
تُصَلِّي، وَهَامَ كُلِّ فُضَاءِ،

وَتَسَامِي مَجَامِرًا جَبَلُ الْأَطْيَابِ،
فَاغْتَحِ، يَا رَبُّ، بَابَ السَّمَاءِ !

الشَّهَدُ السَّابِعُ
مَرَى، الْأَعْمَى

الأعمى
بِشْرَ شَعْبِ الْإِغْرِيْقِ ! بِشْرَكَ ، أَوْ رَبُّ ،
فَقَدَمَوْسُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيِّتٍ .

مَرَى

وَقَدْ اسْتَحَالَ عَلَيْهَا تَصْدِيقُ النَّبَأِ
كَذِبٌ .

الأعمى
لَوْ رَأَيْتَهُ جَرَّ الْخِزْيِ
جَرِيحاً عَلَى الثَّرَى ، لَازْدَرَيْتَ !

مَرَى

كَانَ دُنْيَا .

الأعمى
وَذَلَّةُ الْخَصْمِ ذُلًّا .

مَرَى

مَتَذَكَّرَةٌ تَتَمَّةٌ بِطَوْلَتِهِ
أَنَا أَبْصَرْتُهُ فَرَى كَبْرِيَاءَةً .

وتلقاه، حذرة الرد، بالضربة
كبت علي الحضيض مضاءة.
هاج يكسوهما العجاج، فلم أبصر
سوى السيف صاعقاً كالضمير،
والأساطير حول ضربته تولد
في الصخر، في الرُّبى، في العصور.
أجفل الشط، أجفل الموج للساحة
ترتج بالبطولة غرياً،
فتعير البحار خوفاً، وتكسو الصمت
عمقاً، وتكسب الشمس جلياً.
أنا أحسست عند وقع الجناحين
صراخاً من عالم في انهيار،
يتولى محلوكاً في الدهارير،
ويبنى مولوداً في الدمار.
وعلى الأنمل السنيات من قدموس
بيضاء نجمة تتفتح،
طافراً من جلالها مثل صبرج
يتعالى بين النجوم ويمرّج.
أفهدا، أعمى البيوسى، يُسام الخسف
والذل ؟ لا.

الأعمى

بلى ! وقضاء

حطّ من كبريائه عند صخرٍ

قابع، فهو والمنى أشلاء.

من معيني أصبّ في سمعك الواقعة

أبلى فيها القضاء سخياً.

قال : « ما كان للمكابر عزم ! »

وطواه على المذلة طياً.

أنا، من خيفتي، حملتُ الى زوش

صراخ الصّريع حولاً وطولاً،

أنا أرجفتُ حول قدموس أنباء

اقشعرت لها الفرائص هولا،

حرّكتُ زوش رعدةً فجّرتُهُ

غضباً مُترعَ الشّباب، أصمّا،

وغلّت في يديه صاعقةً شمطاءً،

مولودةً مع الدّهر قَدماً.

ومشى في غمّاتين إلى قدموس،

يهوي بزعرعٍ إثر زعرعٍ،

شدّد الوحش صوته، فتملّى

من نيوبٍ في فكّه ليس تشبّع،

هَبَّ يطوي العَجَاجَ في طَلَبِ الثَّارِ.

مرى

نافذة الصبر

وقدموس !

الأعمى

في اتِّقَاءِ الصَّوَاعِقِ،
لَفْتَةً في اللَّطْفِ، وَأُخْرَى الى الخَصْمِ،
وَلَا زَنْدَ، آنَ يَضْرِبُ، وَاثِقُ.
أَبْدًا لَا يَقَرَّ عَيْنًا، وَإِلَّا
حَطَمَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ شَظِيَّةُ،
أَبْدًا لَا يُكْرِرُ كَرَّتِهِ الْأُولَى،
وَإِلَّا التَّقَشُّهُ نَابٌ فِيَّهْ.
فهوى.

مرى

موجعة تأبى مجرّد التفكير بانهزام قدموس
لا تقل !

الأعمى

وجرّر جثماناً
على الأرض.

مرى

لا !

الأعمى

وعَفَرَ حُلَمًا.

مرى

خَلَّنِي !

الأعمى

بتلذذ

وانطوت على ليل عينيه
أَمَانِيَّةُ البَوَاسِمِ دُهِمًا.
وترأّت له، على البُعْدِ، آمَالُ
عِراضٍ في كَسْفَةٍ واصفرارِ،
وجهٌ صيدونيا يَغِيبُ، وغاباتُ
الصَّوَارِي العُلَى، وملِكُ البحارِ؛
ورأى مِخْلَباً ...

مرى

حنائك ! يكفيني.

الأعمى

وناباً ...

مرى

دعني !

الأعمى

وعيناً ...

مرى

أقلاً !

الأعمى

ورأى رغبة اللّعب على الفكين.

مرى

هاربة

لا لا !!

الأعمى

رأى القضاء مُطلّاً.

وأنا ذاهلٌ على صخرتي، أزهو
كأعمى في ثأري غير أعمى ؛
أفحِم الشمسَ في الضُّحى، فأرد النَّصرَ
كسفاً وأطلع العزَّ وهما.

ثملا بلذّة الثَّار

رِيَّةٌ بي ؟ ضللتِ، مُرضعُ قدموس،
رجاء، ضللتِ سهماً وقصداً.

فخذيها وقيةً عصفت بالفتح
يئساً، وبالجزائـر جُرّدا.
أنظري، تلتقيه أضغاث حلمٍ
نصرَ قدموس.

الشهد الثاني الأعمى، قدموس

قدموس

متفكراً حزيناً

نصرَ قدموسَ دامِ !

الأعمى

ربّ ! قدموسُ في الوجود ؟!

قدموس

وما هدته

دُهمُ الأهـوالِ والآلامِ !

وقعةٌ كالكَذاب ! شقٌّ من الغيب،

وشقٌّ من الليالي الدّياجـي.

مستجمعاً ذاكرته

كيف كانت ؟ بينا أنا تحت وابلٍ

راجمٍ من صواعقٍ وعجاجٍ،

عبثاً أحتمي بأشدق غورٍ،

عبثاً أتقي بأصلع صخرٍ،

ونُوبٌ صفراءُ تلمعُ دوني

في صريرٍ يحزُّ أعماقَ صدري،

لوحت لي، على البعيد، يدٌ بيضاءُ

تزهو بالأحمر الأرجواني،

ذكرتني أوربٌ، عهدَ العذارى

طافراتٍ على رُبي لبنان،

أيُّ نُعمي في وجهها ! لا سنى الاشرار

أبهي ولا جلالُ الغروبِ.

قدَّها شلحُ زنبقٍ أبيضٌ عَفٌّ،

وتخطو فالأنس ملءُ الدُّروبِ.

طوّقتني بالبشر، مذ ضحكك لي،

ورثت صوبَ زوشٍ تسأل رِفداً،

كان إن مسَّ طرفُها نارَ زوشٍ

يترك النارَ ياسميناً وورداً.

وَتَنَفَّسْتُ أَلْتَقِي عِزْمِي الرَّاجِعَ
فِي وَابِلٍ مِنْ الزَّهْرِ نَضْرٍ،
وَنَفَضْتُ الْغِبَارَ عَنِّي وَأَطْبَعْتُ،
عَلَى وَحْشِهِمْ أَقْدُ وَأُفْرِي.
خَلَّنِي خَلَّنِي مِنَ الْفَخْرِ.
الْأَعْمَى

مُسْتَفْهِمًا يَهْلَعُ

مَا مَاتَ !

قَدَمُوس

بَلَى ! انْهَارَ لَا يَحِيرُ صَرِيحًا

الْأَعْمَى

قُلْتُ ١٢ ...

قَدَمُوس

مَاتَ الصَّبَاحُ فِي تَيْنِكَ الْعَيْنِينَ،
وَارْبَدَ كُلُّ أَفْقٍ وَرِيحًا،
وَعَلَا هَاتِفٌ أَنْ « افْتَضَّ مِنْ فَكِّيهِ،
وَأَزْرَعُ أَضْرَاسَهُ فِي الْفَلَاةِ،
تُثْبِتِ الْأَرْضُ مَنْ يَشِيدُونَ لِلْقَدَمُوسِ
أُولَى الْمَدَائِنِ الْخَالِدَاتِ ».

الأعمى

هل أجبتَ الداعي ؟!

قدموس

كأنما يلوم نفسه

أجبتُ ! وما أنجزتُ

حتَّى لم يبقَ ظلُّ لرؤيا،
وتهاوى الظَّلامُ حولي كثيفاً،
خِلْتُ دنيا راحت تُحطِّم دنيا.
وعرَى بسمتي خريفٌ من اللون،
وأحسستُ وحشةً في الصَّباح،

موجعاً

أيَّ جفنٍ يُغضي فيلهب صدري !
أيَّ جيدٍ يُلوي فيكوي جراحي !
وسرى الخوفُ فيَّ للمرَّة الأولى !
سرى ؟ لا.

الأعمى

بشار

بلى، وكان نذيراً !

قدموس

بِمَ أَنْذَرْتُ ؟ قُلْ.

الأعمى

بِأُورَبِّ، يَا قَدْمُوسُ.

قدموس

أُخْتِي ! ...

الأعمى

تَحِيَا الصَّبَاحِ الْأَخِيرَا !

قدموس

يَفْتَدِيهَا ...

الأعمى

مَنْ، أَيُّهَا الصَّارِعُ الْعِزَمَ

يَقِيهَا أَسِنَّةَ الْخَالِدَاتِ ؟

إِنْتَظَرُهَا أَمْرٌ مِنْ شَجْوِكَ الْيَوْمَ،

وَأَمْضَى مِنْ مِخْلَبِ الْحَسَرَاتِ.

قدموس

آهٍ وَيَحِي !

الأعمى

بِسُحْرِيَّةٍ وَمَرَارَةٍ

ما أجمل الآه سيفاً
 قاطعاً في يد الكمي فرندا.
 قم إلى سيفك الجديد، وأفجم
 قدراً رحمت تزدريه، وصدا.
 « قدر فوقنا » مقالة جبن؟
 أرني، يا ابنها، وعي غير جبن،
 بطل؟ كنه في لقائك أقدارك،
 كنه زهاء طرفة جفن.
 أخذك اليوم للمنيّة.

قدموس

زور.

الأعمى

زمجر السيل، وهي منه حصاة.
 خذ، فتى البحر، خذ بناصرها الآن
 وللريح غضبة وافتئات.

قدموس

عزمتي ! عزمتي !!

الأعمى

خيوط من الوهم،

وومضت من الشراب نحيلاً،

فابكِها.

قدموس

مستبعداً الفكرة

لا !

الأعمى

تقول : « لا » وعلى وجهك
جَهشٌ من الأسى، وعويلٌ.

قدموس

أنا !

الأعمى

أوهى من مرأة، في مراميك
ازورار، وفي قواك انهيار،
واجفُ الجسم ...

قدموس

لا ! وبأسي، يا أعمى،

وزندي ؟

الأعمى

باحترار

هشّ ولونّ مُعارُ.

طيفُ جسمٍ يكاد يخلعك اليومَ.
ويمشي عليك.

قدموس

لا.

الأعمى

ويدوسُ.

قدموس

أنا ؟ أغنيّةُ الرماح، عِنانُ البحر... ؟

الأعمى

كأنّما يردُّ بالقول نفسه الذي ردَّ به قدموس في الفصل الأوّل
أمساً.

قدموس

أمساً ؟ أنا قدموسُ،

تؤأمُ العزم ... ؟

الأعمى

هاتِ من عزمك اليوم،
وحوِّزِ في صفحة الأقدارِ،

خُطُّ في صبحك المريضِ ولو حرفاً،
وزحزح قُلامَةً من غُبارِ.

قدموس

مذعنًا للحقيقة
جَهْمَةٌ طُلَعُ الصَّباح، وخرسَاءُ
التَّنَادِي في أضلعي المَعُولَاتِ ؛
ويكاد الشُّعاعُ يلهبُ أعصابي،
ويهمي أَسِنَّةٌ في شَكَاتي.

الإلهات

من الدَّاخِلِ

ما له الدَّمْعُ طاب !
مجدُّ أُوْرَبِّ طَواه الرَّدَى.
رُقِّ، يا وردُ، ونُحْ يا ندى :
« وَجَهٌ صيدونَ غاب ».

المشهد التاسع

قدموس، الأعمى، مري

قدموس

وقد رأى مري تدخل عليه وحدها مذعورة، محطمة
وحذك اليوم؟ فيم صمتك؟! ضجّجى.
أوحق إغوال هذا السكون؟
أوأغمضت أنت طرفاً عليها
واختزنت البهاء طي الجفون؟
أوشمت الذراع تهوي على القد،
وكانت إشارة في الكمال؟
باعدت فافتفتها، فدفعت الصخر
من غفلة إلى صحو بال.
أومات عروس لبنان؟ جوعي،
يا تراباتنا الى رطب ظل،
واهدئي، يا غصون، واصفر يا زهر،
فمن بعدها لحسن ودل!

الأعمى

مقرّعاً

مُدَّ كَفًّا إِلَى الْحَقِيقَةِ، يَا فَاتِحُ،
وَالْمُسْ، فَمَا الْحَقِيقَةُ زُورًا.
تَقْحُمُ الْأَرْضَ، تَقْحُمُ النَّجْمَةَ الْأُخْرَى،
وَتَبْقَى دُونَ السَّمَاءِ صَغِيرًا !

الْإِلَهَات

مِنَ الدَّاخِلِ

سَوْفَ تَبْقَى، غَدًا،
لِلْأُولَى يَمْضُونَ لَا يَرْجِعُونَ،
— حُدُّهُمْ فِي السَّعْيِ حُدُّ الظَّنُونِ —
إِصْبَعًا فِي الْهَدَى.

غَنَّا بِاسْمِهَا،
وَأَقْعًا مَلًّا، فَكَانَ الْخِيَالُ.
مَنْ تُرْخُ تَقْرَعُ بَابَ الْمَحَالِ
تُذِمُّهُ، يُذِمُّهَا !

مَرَى

كَأَنَّمَا تَنْعَى أَوْرَبَ
غَابَتِ الشَّمْسُ !

قدموس
ربّ !

مرى

وقد ظهرت رؤيا لمدينة تشاد مشيقة الأعمدة، شاهقة القباب، ترصف
حجارتها، كما جاء في الأسطورة، كل ردّاً على نغم، ومداميكها كل
استجابة لإيقاع

حدّق !

قدموس

. وكأنّما تهلّل وجهه لأوّل مرة

هُمُّ صِيدُون

راحوا يبنون أبراج رثيبا،
رفعوها أنقى من الشمس لألاء،
وأبهى من العلاء وثوبا !

البحارة الصيادنة

من الدّاخل

غرّبي، يا بحار،
شرداً بالأمل الغضّ،

ههنا، في آخر الأرض،
كرمة لي ودار.

الإلهات

من الداخل

ما له الدَّمْعُ طاباً !
مجدُ أورب طواه الرّدى !
رُق، يا ورد، ونُح، يا ندى :
وجهُ صيدون غاب !

الأعمى

وقد ظهرت رؤيا أخرى، قبالة الأولى، لإلهات يتحبن حول قبر من رخام
عال، أنيق
قبرُ أورب !

مرى

ولم تنفك شاحصة إلى الرؤيا الأولى
ملكُ صيدونيا !

قدموس

محطماً يتأرجع بين المشهدين : مجد بلاده ومصرع أخته
قسمتنا

من هداية وفتوح :
نحمل الأرض، إن نشأ، فوق كفين ؛
ونمضي كريشة في الريح !

ستار

تمت

فهرست المجلد

بنت يفتاح	٥
المجدلية	٧٣
قدموس	١٣١

